كارل غوستاف يونغ

التنقيب في أغوار النفس

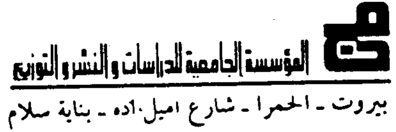
ترجمة: نهاد خياطة

بحث
لامع ودقيق
في
حيرة الفرد
في مجتمع اليوم



الطبعة الأولى

1416هـ - 1996 م



بيروت - الحمرا - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف : 802428 -802407 -802296
ص. ب : 6311 /113 - بيروت - لبنان
تلكس : LE M.A.J.D 21665 -20680

كارل غوستاف يونغ

التنقيب في أغوار النفس

ترجمة: نهاد خياطة



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

عنوان الأصل باللغة الانكليزية

THE UNDISCOVERED SELF

ترجمة عن الألمانية: R.F.C. HULL

كلمة الناشر الأميركي

وصفة من أجل الخلاص

في هذا الكتاب الملحّ والثاقب استقطار خبرة عمر، أكّد فيه الدكتور يونغ أن بقاء حضارتنا قد يتوقف إلى حد كبير على سدّ الفجوة المتّسعة بين جانبي الواعية والخافية في النفس الانسانية.

هذا الكتاب الاستفزازي هو في وقت واحد تحذير جاد ووصف مطوّل يبيّن أن الإنسان، وهو يعيش في عصر لم تعد تهدده فيه الكوارث الطبيعية ولا أخطار الأوبئة العالمية، بات عرضة لأخطار التغيرات التي تحدث في داخله. فقط عندما يفهم الفرد ثنائية طبيعته ـ قدرته على إتيان الشر كقدرته على إتيان الخير ـ يستطيع أن يفهم ويكافح الخطر الذي يأتي من قبل من هم في السلطة.

نبذة عن حياة المؤلف

كان كارل غوستاف يونغ، جملةً مع فرويد وأدلر، أحد ثلاثة روّاد عظام ارتادوا ميدان طب النفس الحديث. ولد عام 1865 في سويسرا، حيث درس الطب الجسماني والطب النفساني، ثم أصبح أحد مناصري سيغموند فرويد ومعاونيه الأوائل. ثم نشبت بينهما خلافات نظرية خطيرة (منها نظرة يونغ للغريزة الدينية في الإنسان) أدت إلى قطيعة علمية وشخصية بين الطبيبين النفسيين الشهيرين. كان الدكتور يونغ مؤلفاً لكثير من الكتب، وعاش ومارس السنين الطوال في موطنه زوريخ.

هذا الكتاب حَفَزت عليه محادثات جرت بين الدكتور يونغ والدكتور كارلتون سميث، مدير «مؤسسة الفنون الوطنية» التي جاءت به إلى انتباه «مطبعة شهرية الأطلنطي».

الفهرست

الفصل الأول

أزمة الفرد في المجتمع الحديث

ماذا سوف يأتي به المستقبل؟ منذ أزمنة موغلة في القدم وهذا السؤال يشغل بال الناس، وإن لم يكن إلى نفس الدرجة. بصفة رئيسية، وتاريخياً في أزمنة الآلام الروحية والاقتصادية والسياسية والفيزيائية تتطلع أنظار الناس يحدوهم أمل وقلق إلى المستقبل، وعندئذٍ تكثر التوقعات و«الطوبيات» والرؤى القيامية. ولعلنا نعيد إلى الأذهان، على سبيل المثال، التوقعات الألفية التي انتشرت في العصر الأوغسطي في بداية العهد المسيحي، أو في التغييرات التي طرأت على روح الغرب التي صاحبت نهاية الألفيّة الأولى. اليوم، والألفية الثانية تقترب من نهايتها، نجدنا نعيش مرة ثانية في عصر امتلأ بالصور القيامية التي تنذر بدمار كوني. ما معنى هذا «الانشطار»؛ الذي نرمز اليه بـ «الستار الحديدي، والذي يقسم البشرية إلى شطرين؟ ماذا يحلّ بحضارتنا، وبالإنسان نفسه، لو بدأت القنابل الهيدروجينية تنطلق، أو لو انتشرت الظلمة الروحية والأخلاقية التي يتّسم بها الحكم المطلق في جميع أنحاء أوروبا؟

ليس لدينا من سبب يحملنا على الاستخفاف بهذا الخطر. في كل مكان في الغرب أقليات مخرّبة، تؤويها إنسانيتنا وحسّنا بالعدالة، تمسك بمشاعل الحرق مشرعة، لا يمنعها شيء من نشر أفكارها سوى العقل النقّاد الذي يتوفر لدى فئة من الناس تتمتع بتوازن نفسي، إلى قدر لا بأس به من الذكاء، تتفاوت من بلد إلى بلد وفقاً للطباع القومية. وتتوقف اقليمياً على الثقافة العامة، وتخضع إلى تأثير عوامل مزعجة جداً ذات طبيعة سياسية واقتصادية. لنأخذ معياراً الاستفتاء، لعلنا نستطيع في تقدير متفائل أن نضع له حداً أعلى بنسبة 40 بالمائة من مجموع الناخبين. ولن تكون النظرة المتشائمة الأخرى أقل تسويغاً من سابقتها، من حيث أن هبة العقل والتفكير الناقد ليس من الخصائص البارزة لدى الإنسان؛ وهي حتى حين تكون موجودة لا تكون إلا متقلبة وقلقة. والأصل أن يشتد هذا التقلب وهذا القلق كلما كانت الجماعات السياسية كبيرة. القبيلة تسحق الرؤية النافذة والتفكير الصائب اللذين يظلان أمرين ممكنين لدى الفرد؛ ومن شأن هذا أن يؤدي اضطراراً إلى الطغيان العقائدي والسياسي إذا خضعت الدولة الدستورية إلى نوبة ضعف.

الحِجاج العقلي غير ممكن في شيء من النجاح إلا عندما لا يتجاوز الانفعال في وضع ما درجة حرجة معينة. فإذا ارتفعت حرارة العاطفة فوق هذا المستوى، توقفت قدرة العقل عن إعطاء أي أثر، وحلّت الشعارات والشوارد الرغبية الوهمية محل العقل؛ أي، ينتج نوع من الاستحواذ الجماعي سرعان ما ينقلب إلى وباء

نفسي. في هذه الحالة، تصل إلى ذروتها جميعُ العناصر غير الاجتماعية التي نتسامح في وجودها ما دامت واقعة تحت حكم العقل. مثل هؤلاء الأفراد ليسوا بالشواذّ النادرين بحيث لا نلقاهم إلا في السجون والمصحّات العقلية. ذلك أن أمام كل حالة بيّنة من اختلال العقل يوجد على الأقل، بحسب تقديري، عشر حالات خفيّة نادراً ما تصل إلى نقطة الانفجار الصريح؛ لكنهم في آرائهم ومسالكهم، على الرغم من كل مظاهر الحالات الطبيعية والسوية التي تبدو عليهم، واقعون تحت تأثير عوامل في الخافية تتصف بالمرض والانحراف. طبعاً، لا توجد احصاءات طبيّة عن تواتر الحالات الخبيئة من الجنون ـ لأسباب مفهومة. لكن حتى حين يقل عدد هذه الحالات عن عشرة أمثال حالات الجنون والإجرام الصريحين، تكون هذه النسبة المئوية من عدد السكان، الصغيرة نسبياً، أكبر من أن يعوّض خطرها سائر السكان المحسوبين أسوياء. فحالتهم العقلية هي حالة الجماعة الهائجة جمعيّاً التي تحكمها أفكار عاطفية وشوارد رغبية -Wish fantasies. في حالة من «الاستحواذ الجمعي» Collective Possession، هم المتكيفون، وبالتالي يشعرون فيه بالإلفة والأمَنَة. يعلمون من خبرتهم لغة هذه الأحوال ويعرفون كيف يتناولونها. أفكارهم الوهمية، التي نمت في نقمة التعصب، تستجيب لحالة الانعدام العقلي التي تتصف بها القبيلة وتجد فيها تربة خصبة، وهم يعبرون عن جميع الدوافع والأحقاد التي تقبع كامنة عند الناس الذين هم في حالة سويّة أفضل، تحت قفطان

العقل ونفاذ البصيرة. لذلك هم خطرون، على الرغم من قلة عددهم بالمقارنة مع سائر السكان، من حيث هم مصادر للعدوى لأن من يُسمّى بالشخص السويّ لا يمتلك سوى درجة محدودة من معرفة نفسه.

أكثر الناس يخلطون «معرفة النفس» بمعرفتهم شخصيات انّيتهم الواعية Conscious ego. كل من له واعية ـ انيّة أصلاً يعدّ معرفته لنفسه أمراً مسلّماً به. لكن الأنيّة Ego لا تعرف سوى محتوياتها، فهي تجهل الخافية وما تنطوي عليها. والناس يقيسون معرفتهم لأنفسهم بما يعرفه عن نفسه الشخص المتوسط في محيطهم الاجتماعي، لا بالوقائع النفسية الحقيقية الخفية عنهم في معظمها. من هذه الناحية، تسلك النفس مسلك الجسد في بنيته الفيزيولوجية والتشريحية، التي لا يعرف عنها الرجل العادي إلا القليل. فعلى الرغم من أنه يعيش فيه وبه، إلا أن أكثره غير معروف لدى غير المختص، وتحتاج واعيته إلى معرفة علمية خاصة لكي يعرّف واعيته بما هو معروف عن الجسد، ناهيك عن كل ما ليس بمعروف، الذي هو موجود أيضاً.

لذلك إن ما يُسمى «معرفة النفس أو الذات» عموماً كان معرفة محدودة جداً لما يجري في النفس البشرية، ويتوقف أكثره على عوامل اجتماعية. لذلك يواجهنا الانحياز بأن مثل هذا الشيء أو ذاك لم يحدث «لنا» أو في عائلتنا أو بين أصدقائنا ومعارفنا. ومن ناحية ثانية، نلاقي أيضاً فرضيّات وهمية عن الحضور المزعوم لصفات لا تفيد إلا في تغطية الوقائع الحقيقية للحالة.

في هذا الحزام العريض من الخافية Unconsciousness، المعصوم عن النقد والضبط الواعيين، نقف عزّلاً من وسائل الدفاع، معرّضين لجميع أنواع التأثيرات والعدوى النفسية. مثلما هو الحال في جميع الأخطار لا نستطيع أن نقي أنفسنا شرّ العدوى النفسية إلا عندما نعلم ما الذي يهاجمنا وكيف يأتينا الهجوم ومن أين ومتى. وبما أن معرفة النفس مسألة تحصيل معرفة الوقائع الفردية، فإن النظريات لا تعفينا إلا قليلاً من هذه الناحية. فالنظرية كلما ادّعت لنفسها صلاحية التطبيق الشمولي، كانت أقل انصافاً للوقائع الفردية. كل نظرية مبنيَّة على الخبرة إحصائية بالضرورة؛ أي، تصوغ المتوسط المثالي الذي ينفي جميع الاستثناءات الموجودة على كلا طرفي السلّم ويستعيض عنها بمتوسط مجرد. هذا المتوسط صالح تماماً، لكنه لا يحدث في الواقع بالضرورة. على الرغم من هذا يبرز في النظرية واقعة أساسية منيعة الجانب. فالاستثناءات على كلا الطرفين، على الرغم من أنها واقعية أيضاً، لا تظهر في المحصلة الأخيرة أبداً، لأن كلا منها يُلغي الآخر. فلو عيّنت، مثلاً، زنة كل حصاة في سرير من الحصباء، ووصلت إلى وزن متوسط من 145 غ، فهذا المتوسط لا يفيدني إلا قليلاً في معرفة الطبيعة الحقيقية للحصباء. وكل من يعتقد، على أساس من هذه اللُّقى، إن باستطاعته أن يلتقط حصاة بوزن 145 غ عند أول محاولة، لسوف يصاب بخيبة كبيرة. في الحقيقة، فقد يحدث أنه مهما طال بحثه لن يجد حصاة واحدة تزن 145 غ تماماً.

المنهج الإحصائي يظهر الوقائع في ضوء المتوسط المثالي لكنه لا يعطينا صورة عن حقيقتها التجريبية. إذ يمكنه، بينما هو يعكس جانباً من الواقع لا ينازع فيه، ان يزيف الحقيقة الفعلية على أكثر من نحو من التضليل. إن هذا ينطبق بصفة خاصة على النظريات التي تنهض على الإحصاءات. غير أن الشيء المميز للوقائع الحقيقية إنما هو فرادتها Individuality. لولا المبالغة لقلنا أن الصورة الحقيقية ليست غير الاستثناءات من القاعدة، وأن الحقيقة المطلقة تتصف بصفة عدم قابليتها للقياس ولا للانتظام.

يجب أن نضع هذه الاعتبارات في ذهننا كلما كان ثمة كلام على نظرية تريدنا أن نسترشد بها دليلاً إلى معرفة النفس. لا يوجد، ولا يمكن أن يوجد، معرفة للنفس مؤسسة على مسلّمات نظرية، لأن موضوع النفس موضوع مفرد ـ استثناء نسبي وظاهرة غير قياسية. من هنا كان القول إنه ليس الشمولي ولا القياسي هو الذي يميز الإنسان (الفرد)، بل الفريد. يجب ألا نفهم الإنسان على أنه وحدة متكررة، بل على أنه شيء فريد ومفرد لا يمكننا، في التحليل الأخير، ان نعرفه ولا أن نشبهه بأي شيء سواه. من ناحية أخرى، يمكننا أن نصف الإنسان، من حيث أنه فرد في نوع، كوحدة احصائية، وإلا لم نستطع أن نقول عنه شيئاً له صفة العمومية. لهذا الغرض يجب اعتباره وحدة مقارنة. ينتج عن هذا إناسة (انثروبولوجيا) ونفاسة (سيكولوجيا) صالحتان شمولياً، حسبما يكون عليه الحال، في صورة مجردة للإنسان كوحدة

متوسطة أُزيل منها جميع الملامح الفردية. لكن هذه الملامح هي بالضبط ذات الأهمية القصوى من أجل «فهم» الإنسان. إن كنت أريد أن أفهم كائناً بشرياً مفرداً، يتعيّن عليّ أن أطرح جانباً جميع المعرفة العلمية عن الإنسان المتوسط، وان أنبذ جميع النظريات بغية اتخاذ موقف غير متحيّز، موقف جديد كل الجدّة. لا أستطيع أن أقوم بمهمة الفهم إلا بعقل حر ومنفتح، على حين أن معرفة الإنسان، أو النفاذ إلى الصفة البشرية، تفترض جميع أنواع المعرفة عن النوع البشري عموماً.

أما إن كانت المسألة مسألة أن نفهم كائناً بشرياً معيناً أم مسألة معرفة المرء لنفسه، فيتعيّن عليّ في كلتا الحالتين أن أدع جميع الفرضيّات النظرية ورائي. وبما أن المعرفة العلمية لا تحظى بالاحترام والتقدير الكلّيين وحسب، وإنما هي المرجعية الروحية والعقلية الوحيدة في نظر الإنسان الحديث، أجدني مضطراً لكي أفهم الإنسان (الفرد) إلى ارتكاب جرم «العيب في الذات الملكية»، إن صح التعبير، والتوجّه بعين كليلة إلى المعرفة العلمية. إن هذه تضحية لا نقدمها في يسر، لأن الموقف العلمي لا يمكنه التخلص يسيراً من حسّه بالمسؤولية. وإذا اتفق لعالم النفس إن كان طبيعياً لا يريد التوقف عند حد تصنيف مريضه تصنيفاً علمياً وحسب، وإنما يتعداه إلى محاولة فهمه من حيث هو كائن بشري أيضاً، فهو لا محالة واقع في خطر التنازع بين واجبين: بين موقفين متناقضين ومتنافيين كلّياً، أخدهما يتعلق بالمعرفة والثاني بالفهم. لا حل للتنازع بالأخذ بأحدهما دون

الآخر، بل لا بد من نوع من التفكير المزدوج: القيام بأحدهما دون أن يغيب الآخر عن نظرنا.

نظراً لأن **المعرفة** وما تتمتع به من مزايا، من حيث المبدأ، تعمل نوعياً في غير صالح **الفهم**، كان الحكم الناجم عن ذلك خليقاً بأن يكون على شيء من التضارب. فنحن إن حكمنا على الإنسان (الفرد) حكماً علمياً، نجده لا يعدو كونه وحدة تكرر نفسها بلا نهاية حتى ليمكننا تعيينه بأحد حروف الهجاء. لكن، لو أردنا أن نفهمه، لكان هو ذلك الكائن البشري الفريد المفرد، الذي هو الكائن الأعلى والموضوع الحقيقي الوحيد الجدير بالبحث، وذلك عندما ننتزعه من جميع المطابقات والمقايسات الغالية على قلب رجل العلم. ويتعين على الطبيب، فوق كل شيء، أن يكون على علم بهذا التناقض. فهو، من ناحية، مجهّز بالحقائق الإحصائية التي استمدها من تدريبه العلمي، وهو، من ناحية ثانية، يقف أمام مهمة معالجة مريض تتطلب فهماً فردياً، خصوصاً في حالة المرض النفسي. فكلما كانت المعالجة ترسيمية وبالخطوط العريضة، استثارت المقاومات في المريض - وهذا حق، وكان الشفاء عُرْضةً للخطر. إن طبيب النفس يرى نفسه مجبراً، شاء أم أبى، أن يعتبر فردية المريض واقعة جوهرية في الصورة، وأن يرتب طرائقه في المعالجة طبقاً لها. اليوم، على مدى الحقل الطبي بكامله، بات من الأمور المعترف بها أن مهمة الطبيب تتكون من معالجة شخص المريض، لا مرض مجرّد.

هذا التوضيح لحالة الطب ما هو الا مثال على مشكلة التعليم والتدريب عموماً. فالتعليم الطبي ينهض بصفة رئيسية على حقائق إحصائية ومعرفة مجردة. وبذلك ينقل إلينا صورة عن العلم عقلية وغير واقعية، لا يلعب فيها الإنسان (الفرد)، من حيث هو مجرد ظاهرة هامشية، دَوْراً على الإطلاق. غير أن الإنسان (الفرد)، من حيث هو معلومة غير عقلية، هو الحامل الحقيقي والأصلي للحقيقة، الإنسان المحسوس في مقابل الإنسان المثالي والإنسان المعنوي الذي ترجع اليه الإبانات العلمية. أكثر من هذا، إن معظم العلوم الطبيعية تحاول أن تمثل النتائج التي أسفرت عنها أبحاثها وكأنها جاءت إلى الوجود بدون تدخل من الإنسان، على نحو تبقى معه معاونة النفس ـ العامل الذي لا غنى عنه ـ أمراً غير منظور. (استثناء من هذا الفيزياء الحديثة التي تعترف أن الملحوظ غير مستقل عن اللاحظ). لذلك، ومن هذه الناحية أيضاً، ينقل لنا العلم صورة عن العالم تبدو منها نفس الإنسان مستبعدة تماماً ـ هذا على خلاف العلوم الإنسانية Humanities.

تحت تأثير الافتراضات العلمية، ليست النفس وحدها هي التي تشكو، بل الإنسان (الفرد)، لا بل جميع الحوادث الفردية كائنةً ما كانت، تشكو من هبوط في المستوى، ومن سياق يشوّه صورة الواقع ويجعل منها متوسطاً مفهومياً Conceptual average. يجب علينا ألا نقلل من قيمة الأثر السيكولوجي لصورة العالم الإحصائية: ينقل الإنسان (الفرد) لمصلحة وحدات مغفلة الاسم يتراكم بعضها فوق بعض لكي تصبح تشكيلات متكتّلة. يمدّنا

العلم، بدلاً من الفرد المحسوس، بأسماء تنظيمات، و، عند أعلى نقطة، بالفكرة المجردة عن **الدولة** من حيث هي مبدأ الواقع السياسي. وعندئذٍ لا بد من حلول سياسة الدولة **raison d'état** (أو حق الدولة) محل مسؤولية الفرد الأخلاقية. فبدلاً من تمايز الفرد الأخلاقي والعقلي، تجد نفسك أمام الرفاه العام ورفع مستوى المعيشة. لا يعود هدف ومعنى حياة الفرد (وهي الحياة الحقيقية الوحيدة) كامِنَيْن في نموّ الإنسان (الفرد) بل في سياسة الدولة التي تُقحم على الفرد من الخارج وتتكون من تنفيذ فكرة مجردة تجنح في النهاية إلى انتزاع حياته كلها لنفسها، ويُحرم الفرد بإطراد من اتخاذ القرار الأخلاقي المتعلق بالكيفية التي ينبغي له أن يحيا حياته الخاصة به، وبدلاً من ذلك يُفرض عليه الحكم والغذاء واللباس والتعلم كوحدة اجتماعية، ويقيم في وحدة سكنية مناسبة، ويلهو وفقاً للمستويات التي تسر القبيلة وترضى عنها. والحكام، بدورهم، وحدات اجتماعية بنفس القدر الذي يكون فيه المحكومون وحدات اجتماعية، ولا يتميزون من هؤلاء إلا من حيث أنهم ناطقون بلسان الدولة يروّجون لعقيدتهم. ليسوا بحاجة لأن يكونوا شخصيات قادرة على إبداء رأي، بل مختصون، في أضيق الحدود، لا يمكن الاستفادة منهم خارج خط عملهم. فسياسة الدولة تقرر ما يجب تعليمه وما يجب درسه.

إن عقيدة الدولة الكلية القدرة ظاهرياً إنما اخترعها باسم الدولة الذين يحتلون أعلى المناصب الحكومية، حيث تتمركز كل

السلطات بأيديهم. وكل من يصل إلى أحد هذه المناصب، بالانتخاب أو الاستبداد، لا يعود خاضعاً للسلطة، لأنه هو سياسة الدولة نفسها، وهو في حدود موقعه يستطيع أن يمضي على وفق هواه. يستطيع أن يقول مع لويس الرابع عشر: «الدولة أنا»*. بذلك يكون هو الفرد الوحيد، أو، على أي حال، أحد الأفراد القلائل الذين يستطيعون استخدام فرديتهم، لا لشيء إلا لأنهم عرفوا كيف يمايزون أنفسهم من عقيدة الدولة. غير أنهم أخلق بأن يكونوا عبيد خيالات أنفسهم. مثل هذه الأحادية يعوضها سيكولوجياً بصفة دائمة ما يقبع في الخافية من ميول تخريبية. العبودية والتمرد أمران متضايفان لا ينفصلان. من هنا يشيع التنافس على السلطة والمبالغة في الارتياب في جميع أنحاء المؤسسة من رأسها إلى قدمها. زد على ذلك أن القبيلة، لكي تعوّض عن هلاميّتها العمائية (اللاشكلية الفوضوية، تميل دائماً إلى انتاج «زعيم»، يكاد أن يصبح دائماً ضحية انتفاخ واعيته الأنيّة، كما تبين لنا ذلك أمثلة عديدة من التاريخ.

يصبح هذا التطور أمراً لا مناص منه في اللحظة التي يندمج فيها الفرد مع الآخرين ويصبح كمّاً مهملاً. بمعزل عن تجمعات الكتل البشرية الضخمة، التي يختفي فيها الفرد على كل حال، أحد العوامل الرئيسية المسؤولة عن عقلية القبيلة السيكولوجية هو العقلانية العلمية Scientific rationalism التي تسلب الفرد أسسه

(*) L'état c'est moi.

وكرامته. كوحدة اجتماعية يفقد فرديّته ويصبح رقماً مجرداً ليس غير في مكاتب الإحصاء. لا يستطيع أن يلعب غير دور ضئيل الأهمية في علاقته المتبادلة مع الوحدات الأخرى. وإذا نظرنا اليه عقلانياً ومن الخارج، وانه بالضبط لكذلك، ومن هذه الوجهة من النظر، يبدو من السخف إيجابياً المضي في الحديث عن قيمة الفرد أو عن معناه. والحق أننا لا نكاد نستطيع أن نتصور كيف يمكننا أن نمنح الفرد حياة انسانية مع كثير من الكرامة عندما تكون الحقيقة في الاتجاه المعاكس واضحة كوضوح راحة الكف.

الفرد، منظوراً إليه في هذا المنطلق، ذو أهمية متضائلة، وكل من يريد أن يجادل في هذا سرعان ما يجد نفسه أعزل من الحجة. أن يشعر الفرد انه هو أو أعضاء عائلته أو أصدقاؤه المعتبرون في دائرته ذو أهمية أو ذوو أهمية إنما يبرز الذاتية الهزلية التي يتصف بها شعوره. ماذا تشكّل القلة القليلة بالمقارنة مع عشرة آلاف أو مائة ألف، ناهيك عن مليون؟ إن هذا يذكرني بصديق مفكر أمسكت به مرة ونحن وسط حشد من الناس. فجأة قال متعجباً: «هنا لديك أكثر الأسباب اقناعاً لكيلا تؤمن بالخلود: جميع هؤلاء يريدون أن يكونوا خالدين!».

كلما كبر عدد أفراد الجمهور كان إهمال الإنسان (الفرد) أكبر. لكن إذا شعر الإنسان، الذي يطغى عليه شعور بالضآلة والعجز، إن حياته قد فقدت معناها ـ وهذا، المعنى، بعد كل شيء، ليس بالرفاه العام ومستويات المعيشة الرفيعة ـ عندئذٍ يكون في طريقه إلى عبودية الدولة، ويصبح تابعاً لها بدون أن يدري ذلك أو

يريده. فالإنسان الذي لا ينظر الا إلى الخارج ويجبن أمام القطعان لا يملك من الموارد ما يكافح به دليل حواسّه وعقله. لكن هذا بالضبط هو ما يحدث اليوم: نحن مفتونون بالحقائق الإحصائية ونستشعر الخوف منها. وهناك أعداد كبيرة من الناس يعلموننا يومياً بلا شيئية ولا جدوى الشخصية الفردية لأنه لا يمثلها ولا يشخّصها تنظيم جماعي. بالمفهوم المعاكس، الأشخاص الذين يتبخترون في مشيتهم على مسرح العالم ويُسمعون أصواتهم في الطول والعرض ـ هؤلاء يبدون للجمهور غير الناقد ذوي تأثير على حركة العوام أو على مدّ الرأي العام، وهم لهذا السبب إما أن يقابلوا باستحسان أو استهجان.

وبما أن إيحاء العوام يلعب هنا دوراً سائداً، تبقى هناك نقطة خلافيّة حول ما إن كانت رسالتهم هي رسالتهم هم، التي هم مسؤولون عنها شخصياً، أم أنها تقوم بوظيفة مكبرة صوت للرأي الجمعي.

في هذه الظروف ليس ما يبعث على الاستغراب أن نرى الرأي الفردي يغدو غير واثق من ذاته بصفة مطّردة وأن تتخذ المسؤولية صفة الجمعية إلى أقصى حد ممكن؛ أي يحولها الفرد ويعهد بها إلى هيئة اجتماعية. بهذه يصبح الفرد أكثر فأكثر وظيفة في المجتمع، الذي بدوره يغتصب وظيفة الحامل الحقيقي للحياة، على حين أن المجتمع في الواقع الفعلي ليس أكثر من فكرة مجردة كفكرة **الدولة**. كلاهما أمر مشخّص، أي يصبح ذا كينونة مستقلة. **الدولة**، بدورها، تتحول إلى شخصية شبه حية يتوقع

منها كل شيء. وهي، في الحقيقة، ليست سوى تنكير Camouflage للأفراد الذين يعرفون كيف يديرونها. هكذا تنحرف الدولة الدستورية إلى وضعية شكل بدائي من المجتمع، أي شيوعية قبيلة بدائية حيث يخضع كل فرد إلى حكم الأوتوقراط، حكم شيخ أو قلة ممتازة.

الفصل الثاني

الدين معدّلاً لعقلية القبيلة

بغية إطلاق يد الدولة ـ بعبارة أخرى، نزوات الذين يتولّون أمرها من كل قيد صحّي، تعمد جميع الحركات السياسية ـ الاجتماعية التي تسير في هذا الاتجاه إلى قطع الأرض من تحت «الأديان». ذلك أنه، لكي، نجعل من الإنسان (الفرد) وظيفة في **الدولة**، يتعين علينا أن نسلبه اعتماده على أي شيء آخر سواها. لكن الدين يعني الاعتماد على وقائع تجريبية غير عقلانية والخضوع لها. فهي لا تعود مباشرة إلى شروط اجتماعية وفيزيائية؛ بل هي تعني أكثر من ذلك بكثير الموقف النفسي الذي يتخذه الإنسان.

لكن من الممكن أن يكون لنا موقف من الشروط الخارجية من الحياة، ولا يتأتّى لنا ذلك إلا عندما نجد نقطة استناد خارج هذه الشروط يمكننا الرجوع إليها. الأديان تتيح، أو تدّعي أنها تتيح، مثل نقطة الاستناد هذه، وبذلك تمكّن الفرد من ممارسة قدرته على الحكم على الأشياء واتخاذ القرار بشأنها. تبني له إحتياطياً،

كما يبدو أنها تفعل ذلك، تجاه قوة الظروف البيّنة التي لا مناص منها ويتعرّض لها كل شخص لا يعيش إلا في العالم الخارجي وليس له من أرض تحت قدميه سوى الرصيف. فلو كانت الحقيقة الاحصائية هي الحقيقة الوحيدة، إذن لكانت هي السلطة الوحيدة. ولو كان ثمة شرط واحد، من حيث أنه لا وجود لشرط مضادّ، لكان الحكم على الأشياء واتخاذ قرار بشأنها أمراً لا لزوم له، بل لكان أمراً مستحيلاً، ولكان الفرد ملزماً بأن يكون وظيفة للاحصاءات، وبالتالي وظيفة للدولة أو أي مبدأ نظام مجرد قد تُسمّى به.

غير أن الأديان تعلّم الناس سلطة أخرى تتعارض مع سلطة الدولة. فعقيدة اعتماد الإنسان (الفرد) على الله تطالبه بحقوق مماثلة للحقوق يطالبه بها العالم. لا بل قد تؤدّي به مطلقية هذه المطالبة إلى اغترابه عن العالم على نفس النحو الذي يغترب فيه عن نفسه عندما يخضع للعقلية الجمعية. فقد يفقد قدرته على إعطاء حكم وعلى اتخاذ القرار في الحالة الأولى (في سبيل العقيدة الدينية) بنفس القدر الذي يفقد فيه هذه القدرة في الحالة الثانية. هذا هو الهدف الذي تسعى اليه الأديان صراحةً ـ اللهم إلا أن تتصالح مع **الدولة**. وعندما تفعل ذلك، أفضل الاّ أدعوها «أدياناً» Religions بل «عقائد» Creeds. فالعقيدة تمنح التعبير إلى إيمان جمعي محدد، على حين ان كلمة «دين» تعبر عن علاقة شخصية Subjective بعوامل معينة ذات صفة ميتافيزيائية، غير دنيوية. العقيدة اعتراف بإيمان يُراد به العالم بصفة رئيسية عموماً،

وهي بهذه الصفة شأن دنيوي. على حين أن المعنى والقصد من الدين يَكمنان في علاقة الفرد بالله (المسيحية، اليهودية، الاسلام، أو بطريق خلاص أو تحرير (البوذية)*. من هذه الحقيقة الأساسية تنبثق جميع الأخلاقيات، التي لا يمكن أن نسميها أكثر من أخلاقيات مُواضعة ان لم يكن ثمة مسؤولية فردية أمام الله.

والعقائد Creeds، بما هي مصالحات مع الواقع الدنيوي، ترى نفسها تبعاً لذلك مضطرة إلى أن تتخذ لنفسها تقنيناً تقدمياً لآرائها وعقائدها وعوائدها. وهي إذ تفعل ذلك إنما تبتعد عن نفسها إلى حد أن العنصر الديني الأصلي فيها ـ العلاقة الحية بنقطة استنادها غير الدنيوية والمواجهة المباشرة معها ـ يُلقى به إلى القاع الخلفية. ان المرتكز الديني الجامع تُقاس عليه قيمة وأهمية العلاقة الدينية الذاتية وفق عصا مايسترو التعاليم التقليدية، وحيثما لا يكون ذلك متواصلاً، كما في البروتستانتية، نروح نسمع على الفور حديثاً عن الورعية Pietism والمذهبية والحروق وما إلى ذلك، حالما يدّعي أيّ منا أن إرادة الله هي التي ترشده. تتوافق العقيدة مع الكنيسة المؤسسة أو، على أي حال، تشكل مؤسسة عامة لا يضم أعضاؤها مؤمنين حقيقيين وحسب، وإنما أعداداً

(*) الفرق الذي يضعه يونغ بين العقيدة creed والدين religion هو كالفرق الذي يعتمده الصوفية بين الشريعة والحقيقة. فالأولى للعامة، والثانية للخاصة بل لخاصة الخاصة. ـ **المترجم** ـ

كبيرة من الناس لا يمكن أن يوصفوا بأقل من «غير مكترثين» بأمور الدين وينتسبون اليه بقوة العادة ليس إلا. هنا يصبح الفرق بين العقيدة والدين واضحاً تماماً.

لذلك، ان تكون تابعاً لقصيدة معينة ليس دائماً أمراً دينياً، بل على الأغلب، أمر اجتماعي، وهو بهذه الصفة، لا يفعل شيئاً في منح الفرد أساساً يقف عليه. إنما يتعين عليه، لكي تحصل على مستند يقف عليه، أن يعتمد حصراً على علاقته بسلطة ليست من هذا العالم. المعيار هنا ليس القيام بخدمة شفوية للعقيدة، بل هو الحقيقة السيكولوجية التي تفيد أن حياة الفرد لا تعيّنها الأنيّة ego وآراؤها أو العوامل الإجتماعية وحسب، وإنما بنفس المقدار، ان لم يكن أكثر، السلطةُ المفارقة Transcendent authority، ليست المبادئ الأخلاقية، مهما بلغ من سموّها، ولا العقائد، مهما بلغ من استقامتها، هي التي تُرسي أسس حرية الفرد واستقلاله، وإنما هو الإدراك التجريبي، والخبرة التي لا تُدحض لعلاقة محض شخصية يتبادلها إنسان مع سلطة غير دنيوية تكون بمثابة معدّل لثقل هذا العالم و«موجِبه».

هذه الصيغة لا يُسرُّ بها رجل القبيلة ولا المؤمن الجمعي. فالأول عنده سياسة الدولة هي المبدأ الأعلى للفكر والعمل. والحق إن هذا المبدأ كان هو الهدف الذي استنار به، وتبعاً لذلك يمنح الإنسان القبصي حقاً في الوجود بمقدار ما يكون وظيفة في الدولة ليس إلا. أما المؤمن، فبينما يسلّم بأن للدولة مطلباً أخلاقياً وواقعياً، يعتقد بأنه ليس الإنسان وحده هو الذي يخضع

لربوبية «الله»، بل تخضع الدولة أيضاً لهذه الربوبية، وانه عند الشك، يكون الله هو الذي يصنع القرار الأعلى، لا الدولة. وبما أني لا أتنطّح لأحكام ميتافيزيائية، يتعين علي أن أترك السؤال مفتوحاً، سؤال ما إذا كان هذا العالم، أعني العالم الظاهراتي للإنسان، وبالتالي الطبيعة عموماً، هو «ضدّ» الله أم لا. لا يسعني إلا أن أبيّن أن التضاد السيكولوجي بين هذين العالمين من الخبرة لا يشهد له «العهد الجديد» وحسب، وإنما ما زال له مثاله اليوم على أصرح ما يكون في الموقف السلبي الذي تتخذه الدولة الدكتاتورية من الدين، والموقف الذي تتخذه الكنيسة من الإتحاد والمادية.

كما أن الإنسان، بما هو كائن اجتماعي، لا يستطيع على المدى البعيد أن يوجد بدون رابطة تربطه بالمجتمع، كذلك الفرد لا يجد التبرير الحقيقي لوجوده، ولا استقلاله الروحي والأخلاقي، إلا في مبدأ غير دنيوي، قادر على تنسيب التأثير الطاغي الآتي من قبل العوامل الخارجية. الفرد الذي لا يتعلق بحبل الله، لا يستطيع بالاعتماد على موارده الخاصة أن يقاوم إغراءات العالم، المادية والمعنوية. من أجل ذلك يحتاج إلى دليل من خبرة جوّانية مفارقة هي وحدها التي تستطيع أن تقيه الانغماس الذي لا مناص منه في القبيلة. إن مجرد التبصرة العقلية أو حتى الأخلاقية في عقم رجل القبيلة وانعدام مسؤوليته الأخلاقية ما هي إلا اعتراف سلبي، ولا تصل إلى أكثر من ترنّح على الطريق المؤدّي إلى تفتيت الفرد. تفتقر إلى القوة الدافعة

التي تنطوي عليها العقيدة الدينية، من حيث إنها موقف عقلي. للدولة الدكتاتورية ميزة عظيمة واحدة على الدولة البورجوازية. بالإضافة إلى قضائها على الفرد، تقضي أيضاً على قواه الدينية. الدولة تحل محل الله؛ وهذا هو السبب الذي يجعل من الدولة الدكتاتورية الاشتراكية، منظوراً إليها من هذه الزاوية، ديناً، ومن استرقاق الدولة نوعاً من العبادة. لكن الوظيفة الدينية لا يمكن اقتلاعها من مواقعها، وأن تزيّف على هذا النحو بدون أن تورث شكوكاً خفية، سرعان ما يُصار إلى كبتها تجنّباً للنزاع مع التيارات المتجهة صوب عقلية القبيلة. والنتيجة، كما هي دائماً في مثل هذه الأحوال، هي التعويض المفرط في هيئة «تعصب»، يُستخدم بدور سلاحاً لإخماد أقل بصيص من معارضة. يُخنق الرأي الحر، ويُقمع القرار الأخلاقي بلا شفقة، بادّعاء أن الغاية تبرر الوسيلة، حتى أخسّها. وتُمجّد سياسة الدولة حتى تبلغ مبلغ العقيدة، ويصبح الزعيم أو رئيس الحزب نصف إله، فوق الخير والشر، يُكرّم أنصاره أبطالاً وشهداء ورسُلاً ومرسلين. لا توجد إلا حقيقة واحدة، ولا شيء سواها؛ مقدسة وفوق النقد. وكل من يعتقد خلاف ذلك فهو هرطيق يقع، كما نعلم من التاريخ، تحت طائلة جميع الأشياء غير السارّة. زعيم الحزب وحده، القابض بيديه على السلطة السياسية، هو من يحق له تفسير عقيدة **الدولة** تفسيراً أصلياً، وهو يفعل ذلك كما يحلو له.

عندما يصبح الفرد، من خلال حكم القبيلة، وحدة اجتماعية برقم كذا وكذا، وترتفع الدولة إلى مستوى المبدأ الأعلى، لا

يتوقع للوظيفة الدينية إلا أن تغوص في دوّامة الماء. الدين، من حيث هو مراعاة جادّة لعوامل معينة، لا يمكن التحكم بها، وأخذها بالحسبان، هو موقف فطري خاص بالإنسان؛ ويمكن تتبع مظاهره على مدى التاريخ البشري كله. وغايته البيّنة المحافظة على التوازن النفسي. فالإنسان الطبيعي عنده أيضاً «معرفة» طبيعية بأن وظائفه الواعية يمكن أن تحبطها في أي وقت حوادث لا سيطرة له عليها، تأتي من الداخل مثلما تأتي من الخارج. لهذا كان دائماً حريصاً على أن يخرج سليماً معافى بالاعتماد على تدابير ذات طبيعة دينية كلما أراد اتخاذ قرار صعب قد تنشأ عنه آثار يتحملها هو وغيره. قرابين تقرّب إلى قوى غير مرئية، تبريكات عظيمة يُنطق بها، وجميع أنواع الطقوس الجادة يجري أداؤها. في كل مكان وكل زمان وُجدت طقوس «دخول» و«خروج» ينكر تأثيرها السحري العقلانيون الذين تعوزهم البصيرة النافذة، ويصمونها بالسحر والشعوذة. لكن السحر، فوق كل شيء، له تأثير سيكولوجي يجب أن نعلل من أهميته. إن أداء فعل «سحري» يمنح الشخص المعنيّ شعوراً بالأمان الذي هو شيء أساسي جداً من أجل تنفيذ قرار؛ لأن القرار لا بد وأن يكون ذا جانب أحادي ـ وبالتالي، من حق صاحبه أن يساوره شعور بالخطر. حتى الدكتاتور يعتقد أنه من الضروري ألا يصاحب التهديدات إجراءاته الحكومية وحسب، وإنما يشعر أن عليه أن يباشرها بجميع أنواع الشعائر: موسيقى نحاسية، اعلام، بيارق، استعراضات عسكرية، تظاهرات مَهُولة ـ كل هذه لا

تختلف من حيث المبدأ عن المواكب الكنسية، وإطلاق المدافع والألعاب النارية من أجل تخويف الشياطين. الاستعراض الإيحائي لقوة الدولة الذي يولّد شعوراً جمعيّاً بالأمان، خلافاً للتظاهرات الدينية، لا يمنح الفرد حماية من شياطينه الجوانية. لذلك يزداد تعلقاً بقدرة الدولة، أي بالقبيلة؛ وبذلك يُسلم نفسه إليها نفسانياً وأخلاقياً ويضع اللمسات الأخيرة على عجزه الاجتماعي. الدولة، كالكنيسة، تطالب بالحماسة وبالتضحية بالذات وبالحب. وإذا كان الدين يتطلب أو يفترض «مخافة الله»، إذن فلْتحرص الدولة الدكتاتورية حرصاً شديداً على ممارسة الإرهاب اللازم.

عندما يوجّه العقلاني قوته الهجومية الرئيسية على الأثر السحري الذي يحدثه الطقس الذي رسّخه التقليد، فإنما يطيش سهمه بعيداً عن الهدف. يغضُّ النظر عن النقطة الجوهرية والأثر السيكولوجي، على الرغم من أن كلا الفريقين (الدين ودولة القبيلة) يستخدمه لأغراض متضادّة كلّياً. يسود وضع مماثل فيما يتعلق بمفهوم كل منهما للهدف. فأهداف الدين ـ التخلص من الشر، المصالحة مع الله، ثواب الآخرة، وهكذا ـ تنقلب (عند الدولة القبلية) وعوداً بالتحرر من همّ الخبز اليومي، وبتوزيع عادل للسلع المادية، ورغد العيش للجميع في المستقبل، وساعات عمل أقصر. ان يكون تنفيذ هذه الوعود بعيداً كبعدنا عن **الفردوس** لا يفعل شيئاً مع ذلك سوى أنه يزوّدنا بتشبيه آخر ويؤكد أن القبائل قد تحولت من هدف غير دنيوي إلى عقيدة

دنيوية صرفاً، يُصار إلى تمجيدها بنفس الحماسة والحصريّة اللتين تبديهما العقائد الدينية في الاتجاه الآخر.

لكيلا أكرر نفسي من غير ضرورة، لن أعمد إلى تعداد جميع المتوازيات بين العقائد الدنيوية والأخروية، بل سأقتصر على التوكيد بأن الوظيفة الطبيعية التي وجدت منذ البدء، كالوظيفة الدينية، لا يمكن التخلص منها بالنقد المسمّى بالنقد العقلاني والمستنير. بإمكانك، طبعاً، أن تزعم أن العقائد ومضامينها التعليمية أمور مستحيلة، وان تجعلها موضوعاً للسخرية، لكن هذه الأساليب تندّ عن الهدف ولا تصيب الوظيفة الدينية التي تشكل أساس العقائد. الدين، بمعنى الاعتبار الوجداني لعوامل النفس غير العقلية وقدر الفرد، يعود ليظهر - مُشوّهاً بصورة فظيعة - في تأليه الدولة والدكتاتور: «تستطيع أن تذرو الطبيعة بالمذراة، لكنها لا تلبث أن تعود إليك. «فالزعماء والدكتاتوريون، إذ وزنوا الوضع وزناً دقيقاً، يبذلون جهدهم من أجل تمويه الموازي البالغ الوضوح لتأليه قيصر وإخفاء سلطتهم الحقيقية وراء خيال **الدولة**، رغم أن هذا لا يغير من الأمر شيئاً»*.

كما سبق لي وبيّنت، أن الدولة الدكتاتورية، إلى جانب سلبها الفرد حقوقه، قطعت الأرض من تحت قدميه نفسانياً بحرمانه من الأسس الميتافيزيائية لوجوده. لا يعود للقرار الأخلاقي الذي

(*) كانت كتابة هذا المقال في عام 1956، وكان ثمة رجْع ملحوظ في الاتحاد السوفياتي على هذه الأحوال المرفوضة.

يتخذه الكائن البشري (الفرد) قيمة - إن ما يهم فقط هو حركة القبيلة العمياء، وبذلك يصبح الكذب هو المبدأ المحرك للعمل السياسي. وقد استخلصت الدولة النتائج المنطقية من ذلك، كما يشهد على ذلك بصمت وجود الملايين من عبيد الدولة المحرومين كلّياً من جميع الحقوق.

الدولة الدكتاتورية والديانة الجمعية كلتاهما تلقيان توكيداً خاصاً على فكرة «الجماعة» Community. هذا هو المثل الأعلى الأساسي للشيوعية أو الجماعية Communism؛ وتتلقفه حناجر الناس بمقدار ما يمتلك النقيض التام للأثر المطلوب: يوحي بانعدام الثقة المفضي إلى الفرقة. والكنيسة، التي ليست أقل توكيداً على الجماعة، تبدو في الجانب الآخر مثلاً أعلى جماعياً. وحيثما كانت الكنيسة ضعيفة ضعفاً فاضحاً، كما في البروتستانتية، يعوض عن الحاجة الأليمة إلى التماسك الأملُ بـ «خبرة جماعية»، أو الإيمان بهذه الخبرة. يمكننا أن نرى في يسر أن الجماعة عَوْن لا غنى عنه في تنظيم الكتل البشرية، وهي لذلك سلاح ذو حدّين. وكما أن جمع أصفار مهما بلغ عددها لا يشكل «واحداً»، هكذا تتوقف قيمة الجماعة على القامة الروحية والأخلاقية للأفراد الذين يشكلونها. لهذا السبب لا يسع المرء أن يتوقع من الجماعة أثراً من شأنه أن يُوازن التأثير الذي تحدثه البيئة - أي، تغييراً حقيقياً وأساسياً في الأفراد، إنْ للخير أو للشر. مثل هذه التغييرات لا يمكن أن تأتي إلا من مواجهة شخصية بين إنسان وإنسان، لا من معموديات جماعية، شيوعية أو مسيحية،

لا تمسّ الإنسان الجوّاني. إن ما تحدثه الدعاية من تأثير سطحي فعلاً يمكننا أن نراه في الأحداث الأخيرة التي حدثت في أوروبا الشرقية*. المثل الأعلى الجماعي لا يحسب حساباً لما قد يعترض سبيله من مخاطر، غاضّاً بصره عن الكائن البشري الفرد، الذي يحقق مطاليبه في النهاية.

(*) أضيفت في كانون الثاني (يناير) 1957.



الفصل الثالث

موقع الغرب من المسألة الدينية

يقف العالم الغربي، وهو يواجه هذا التطور في القرن العشرين من العهد المسيحي، ومعه ذلك الميراث الضخم من القانون الروماني، وكنوز الأخلاقيات اليهودية ـ المسيحية القائمة على الميتافيزيائيات، ومثله الأعلى في حقوق الإنسان التي لا يقبل أن تنتزع منه. في قلق يسأل نفسه هذا السؤال: كيف يمكن إيقاف هذا التطور أو كيف يمكن عكس وجهته؟ لا جدوى من التشهير بالدكتاتورية الاشتراكية ونعتها بالطوباوية وشجب مبادئها الاقتصادية ووصفها بمنافاتها للعقل. لأن الغرب الذي يتولّى النقد ليس له، في المحل الأول، غير نفسه يتحدث إليها، من حيث أن الحجج التي يدلي بها غير مسموعة إلا على هذا الجانب من الستار الحديدي. وفي المحل الثاني، كل مبدأ اقتصادي تحبه تستطيع تطبيقه ما دمت مستعداً لأن تقبل بالتضحيات التي تترتب عليه. تستطيع أن تنفذ كل إصلاح اجتماعي واقتصادي يحلو لك إذا تركت، كما فعل ستالين، ثلاثة ملايين فلاح يموتون جوعاً،

وكان تحت تصرفك بضعة ملايين عامل يعملون بلا أجر. ليس لدولة من هذا النوع أزمات اجتماعية أو اقتصادية تخاف منها، فما دامت سلطتها لم تمس ـ أي، ما دام لديها جيش قوي من البوليس حسن الانضباط والغذاء، تستطيع أن تحافظ على وجودها حقبة مديدة غير محدودة، وأن تمضي في زيادة سلطتها أمَداً غير محدود أيضاً. وفقاً لمعدّلات الولادة المتزايدة عندها، تستطيع أن ترفع من عدد العمال غير المأجورين عندما تريد بغية التغلب على منافسيها، بغض النظر عن السوق العالمية، التي تعتمد على الأجور إلى حد كبير. الخطر الحقيقي الذي يمكن أن يتهددها لا يأتي إلا من الخارج، من قبل هجوم عسكري. لكن هذا الخطر يتناقص كل سنة. أولاً، لأن القدرة الحربية لدى الدول الدكتاتورية تتزايد بثبات، وثانياً، لأن الغرب لا يستطيع أن يستثير القومية والشوفينية الكامنتين لدى الروس والصينيين بقيامه بهجوم قد يحول مشروعاته المرسومة بإحكام إلى مجرى القنال غير المراد فيرتكب خطأً لا أمل في تصحيحه.

بقدر ما نستطيع أن نرى، ليس يوجد غير إمكانية واحدة، وهي إنهيار الدولة من الداخل، الذي ينبغي أن نتركه يتبع تطوره الجوّاني. كل دعم من الخارج في الوقت الحاضر لا يكون له غير أثر ضئيل، بالنظر إلى التدابير الأمنية الراهنة وإلى خطر الرجوعات (= ردود الفعل) القومية المتطرفة. للدولة الاستبدادية جيش من المبشرين المتعصّبين جاهزين لتنفيذ أوامرها في مسائل السياسة الخارجية، وهؤلاء بدورهم يعتمدون على طابور خامس

يتمتع بملجأ آمن في ظل قوانين الدول الغربية ودساتيرها. يضاف إلى ذلك جماعات المؤمنين، وهم في مواقع السلطة، يوهنون قدرات الحكومات الغربية على اتخاذ القرار، بينما ليس للغرب فرصة لممارسة تأثير مماثل على خصومنا، وان كنا لا نخطئ في الافتراض بأن هناك قدراً معيناً من المعارضة وسط الكتل البشرية في الشرق. يوجد دائماً أناس مستقيمون، يحبون الحقيقة، يمقتون الطغيان والكذب، لكننا لا نستطيع الجزم إن كانوا يمارسون تأثيراً حاسماً على عامة الناس الذين تحكمهم أنظمة بوليسية*.

بالنظر إلى هذا الوضع غير المريح، كثيراً ما نسمع هذا السؤال: ماذا عسانا أن نصنع لكي نصدّ هذا الخطر الداهم الذي يأتينا من الشرق؟ حتى ولو كان لدى الغرب قدرة صناعية ودفاعية هائلة تحت إمْرته، لا يمكننا أن نطمئن إلى ذلك، لأننا نعلم أنه حتى أضخم المدافع وأثقل الصناعات ومعها مستوى معيشة مرتفع نسبياً، ليست كافية للحيلولة دون انتشار وباء نفسي مُتَأتٍّ عن تعصب ديني.

لسوء الحظ، إن الغرب لم يَصْحُ بعدُ على أن إعجابنا بالمثالية والعقل والفضائل المحبّبة الأخرى، التي نُلَقّنُها في كثير من الحماس، ما هو إلا صخب وغضب. نفخة في ريح تذهب بها عاصفةٌ من إيمان ديني، مهما بدا لنا التواء هذا الإيمان. نحن لا

(*) الأحداث الأخيرة في بولونيا وهنغاريا (المجر) أثبتت أن هذه المعارضة أكبر بكثير مما كان مظنوناً.

نواجه وضعاً يمكننا التغلب عليه بالحجج العقلية أو الأخلاقية، بل قوى هائجة طليقة العنان، وأفكار ولّدتها روح الأزمنة. وهذه الروح، كما نعلم من الخبرة، لا تتأثر كثيراً بالتفكير العقلاني، وأقلّ منه بعدُ، بالنصح الأخلاقي. لقد تبين لكثير من الأوساط، وهي صائبة، أن الترياق **يجب** أن يكون في هذه الحالة إيماناً قوياً مساوياً ذا نوع مختلف، إيماناً غير مادي، وأن الموقف الديني المؤسس عليه هو الدفاع المجدي الوحيد أمام خطر الوباء النفسي. يا للتعاسة، ان تدل كلمة «يجب» هذه التي ما انفكت تظهر بهذا الخصوص، إنما تدل على ضعف معين في هذا الذي نبتغيه، إن لم يكن غياباً له. لا يفتقر **الغرب** إلى الإيمان الموحّد الذي يستطيع أن يصد تقدم الإيديولوجيا المتعصبة وحسب، وإنما يستخدم، كما فعل أبو الفلسفة الماركسية، نفس المسلّمات الروحية، ونفس الحجج والأهداف. على الرغم من أن الكنائس في **الغرب** تتمتع بحرية تامة، فهي ليست أقل امتلاءً أو فراغاً مما هي في **الشرق**. ومع ذلك لا تحدث تأثيراً ملحوظاً على المجرى العريض للسياسات. هذا العيب الذي نجده في العقيدة من حيث هيَ مؤسسة هو في أنها تخدم سيدين: من ناحية، تستمد وجودِها من علاقة الإنسان بالله، ومن ناحية أخرى، هي مدينة بضريبة تدفعها للدولة، أي للعالم، الذي يتيح لها أن تعمل بالقول: «أعْطِ ما لقيصر...»*، وغير ذلك من النصائح التي اشتمل عليها

(*) يشير إلى قول السيد المسيح (ع): «اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

كتَاب «العهد الجديد». لذلك كان في الأزمنة الأولى، وحتى عهد قريب نسبياً، كلام عن «السلاطين المرتّبة من الله» (رومية 13 : 1). أما اليوم فهذا المفهوم قد عضّ عليه الزمن. فالكنائس مثابة للعقائد الجمعية والتقليدية التي لم تعد قائمة في حالة الكثير من أتباعها على خبرتهم الجوّانية، بل على الإيمان الأعمى القابل للتلاشي بصورة فاضحة حالما يبدأ المرء يفكر فيه. عندئذٍ يتصادم مضمون الإيمان مع المعرفة، وغالباً ما ينجم عن هذا التصادم ألا تتماشى لاعقلانية الإيمان مع عقلانية المعرفة. الاعتقاد ليس هو البدل المكافئ للخبرة الجوّانية، وحيثما غابت هذه الخبرة فقد يتلاشى حتى الإيمان القوى الذي جاء إعجازياً على هيئة هِبة نعمة - حتى هذا الإيمان قد يتلاشى كذلك إعجازياً. فالناس يسمّون إيماناً الخبرة الدينية الحقيقية، لكنهم لا يتوقفون لكي يفكروا أن هذا الإيمان Faith ما هو إلا ظاهرة ثانوية ناشئة عن شيء حدث لنا قام في المحل الأول بحقننا بالثقة والولاء. لهذه الخبرة مضمون محدد يمكننا أن نفسره بلغة واحدة أو أخرى من العقائد الجماعية. ولكن كلما كان الأمر على هذا النحو تصاعدت إمكانية المنازعات مع المعرفة، وهي منازعات لا معنى لها بحد ذاتها - أي، أن منطلق العقائد منطلق قديم Archaic، حافل بالرمزية الميثولوجية الفاعلة التي، إن فهمناها حرفياً دخلت في نزاع لا يُطاق مع المعرفة. لكن لو فهمنا، على سبيل المثال، إبانة «أن المسيح قام من بين الأموات» لا بالمعنى الحرفي، بل فهماً رمزياً، لكانت هذه الإبانة قابلة لتفسيرات متنوعة لا تتصادم مع

المعرفة ولم توهن معناها ولا المقصود منها. والاعتراض بأن فهمنا لهذه الإبانة رمزياً يضع حداً لأمل المسيحي بالخلود اعتراض في غير محله؛ لأنه قبل زمن طويل من مجيء المسيحية كانت البشرية تؤمن بالحياة بعد الموت ـ وبالتالي لم تكن بحاجة إلى حادثة الفصح لكي تضمن لنفسها الخلود. إن خطر القضاء على الميثولوجيا برمّتها، إذا نحن فهمناها فهماً مفرطاً في حرفيّته، على نحو ما تعلمه الكنيسة، لهو اليوم أكبر من أي وقت مضى. ألم يحن الوقت لكي نفهم الميثولوجيا المسيحية فهماً رمزياً ولو مرة واحدة، بدلاً من القضاء عليها نهائياً؟

ما زال من السابق لأوانه أن نقول ما هي الآثار التي قد تترتب على الاعتراف العام بالموازاة المميتة بين ديانة دولة الماركسيين وديانة دولة الكنيسة. الادعاء المطلق بـ «مدينة الله» التي يمثلها إنسان ـ هذا الادعاء يحمل شبهاً تعيساً بـ «ألوهية الدولة». والنتيجة الأخلاقية التي استخلصها أغناطيوس لويولا من سلطة الكنيسة («الغاية تقدس الواسطة») تلحظ الكذب كأداة سياسية بطريقة خطرة إلى أبعد الحدود. كلتاهما تطالب بخضوع غير مشروط لعقيدة، وبذلك تنتقص كلتاهما من حرية الإنسان: الأولى حريته أمام الله، والأخرى حريته أمام الدولة؛ بذلك تحضر كلتاهما للإنسان (الفرد) قبره. إن وجود الفرد، الذي هو وجود هش، وهو الحامل الوحيد للحياة، مهدد من كلا الجانبين، على الرغم من وعودهما بفراديس روحية ومادية آتية لاريب فيها ـ وكم منا من يستطيع في السياق الطويل أن يقاوم

الحكمة السائرة: «عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة»؟ إلى جانب ذلك، يحتضن **الغرب** نفس «النظرة إلى العالم» «العلمية» والعقلانية وما يصاحبها من ميل إلى المتوسط الإحصائي الخفيض وأهداف مادّيويّة، تماماً كأهداف الدولة في الكتلة الشرقية، مثلما بينت فيما تقدم.

ماذا، عند الغرب اذن، مع انقساماته السياسية والمذهبية، لكي يقدمه إلى الإنسان الحديث فيما يحتاج إليه؟ لا شيء غير شبكة من الدروب تفضي جميعها إلى هدف واحد لا يختلف عملياً عن المثل الأعلى الماركسي. لا يتطلب الأمر جهداً خاصاً لكي نتبيّن من أين استمدت الإيديولوجيا الشيوعية يقينها بأن الزمن هو إلى جانبها، وأن العالم قد أضحى ناضجاً لاعتناقها. فالوقائع تتكلم لغة على أوضح ما يكون بهذا الخصوص. لن يعيننا في الغرب أن نغمض أعيننا عن هذا الأمر وأن نظل لا نعترف بنقاط ضعفنا القاتلة. كل من تعلم أن يخضع مرّة خضوعاً مطلقاً لاعتقاد جمعي، وأن يتخلى عن حقه الأزلي في الحرية، وأيضاً عن واجبه الأزلي الناشئ عن مسؤوليته الفردية، لسوف يظل على هذا الموقف، ويكون بوسعه الاستمرار في نفس التصديقية Credulity وفي نفس انعدام القوة الناقدة في الاتجاه المعاكس، إذا ما اندسَّ على مثاليته المزعومة اعتقاد آخر وكان واضحاً له أنه «خير» من اعتقاده. ماذا حدث لأوروبا المتحضرة منذ زمن ليس بالبعيد؟ نحن نتهم الألمان بنسيانه كلّياً، لكن الحقيقة هي أننا لسنا نعلم يقيناً أن كل شيء من هذا القبيل يحدث في مكان آخر. على أننا

لا نستغرب أن تصيب أمة «متحضرة» أخرى عدوى اللباس الموحد والفكرة أو العقيدة الأحادية. تبدو أميركا، وهي التي تشكل العمود الفقري السياسي الحقيقي لأوروبا الغربية، وكأنها في مأمن من هذه العدوى بسبب الموقف المضاد الصريح الذي اتخذته. لكنها ربما تكون أكثر عرضة من أوروبا، لأن نظامها التعليمي هو أكثر الأنظمة تأثراً بالنظرة العلمية إلى العالم وحقائقها الاحصائية، وسكانها الأخلاط يجدون صعوبة في ضرب جذور لهم في تربة لا تاريخ لها عملياً. النموذج التعليمي التاريخي والإنسانوي، اذ يحتاج إليه حاجة ماسّة في هذه الظروف، يؤدي، على العكس، إلى نوع من وجود «سندريلا». إن أوروبا، وإن كانت تمتلك هذه الميزة الأخيرة، إنما تستعملها من أجل خراب نفسها في هيئة أنانيات قومية متطرفة وشكّاكية فالجة. كلتاهما، أميركا وأوروبا، تجتمعان على الهدف المادي والجمعي. كلتاهما تفتقر إلى ذات الشيء الذي يعبر عن الإنسان في كلّيته ويؤدي إليها ـ أعني إلى فكرة إحلال الكائن البشري الفرد في المركز واعتباره مقياس كل الأشياء.

هذه الفكرة وحدها كافية لإثارة أعنف الشكوك والمقاومات على جميع الجهات. ولعلنا نستطيع الذهاب إلى حد توكيد أن انعدام قيمة الفرد بالمقارنة مع الأعداد الضخمة هو الاعتقاد الواحد الذي يلقى الموافقة عليه بالإجماع. لكي نكون على ثقة، نحن جميعاً نقول أن هذا القرن هو قرن الإنسان العامّي Common man، وأنه سيد الأرض والهواء والماء، وإن على

قراره يتعلق مصير الأمم التاريخي. هذه الصورة المفتخرة للعظمة الإنسانية ما هي إلا وهم لسوء الحظ، وتقف في موازنتها حقيقة مختلفة جداً. في هذه الحقيقة، الإنسان عبد وضحية للمكائن Machines التي غزت المكان والزمان لأجله؛ واقع تحت وطأة الخوف والخطر من قدرة تقانية الحرب التي يُفترض فيها أن تحافظ على وجوده الفيزيائي؛ حريته الروحية والأخلاقية، وإن كانت مضمونة إلى حدود معينة في نصف واحد من عالمه، مهددة بسوء توجّه عمائي؛ وفي النصف الآخر مقضيّ عليها قضاء مبرماً. أخيراً، بإضافة المهزلة إلى المأساة، إن ربّ العناصر هذا، هذا الحكم الكوني، يحتضن مفاهيم تدفع كرامته بالتفاهة، وتحيل استقلاله إلى عبث. جميع منجزاته وممتلكاته لا تجعل منه كبيراً؛ على العكس، تُضائِلُهُ، كما يدل على ذلك بوضوح قَدَر عامل المصنع الواقع تحت حكم توزيع «عادل» للسلع.

الفصل الرابع

فهم الإنسان (الفرد) لنفسه

من المدهش حقاً أن يجعل الإنسان من نفسه كمّاً مهملاً، وهو المحرّض والمخترع والعجلة التي تمتطيها جميع هذه التطورات التي وصلت إليها الحضارة، المنشئ لجميع الأحكام والقرارات، والمخطط للمستقبل. لكن تقويم الإنسان لإنسانيته يتصف بالتناقض بحيث لا نستطيع أن نجد له تفسيراً سوى أنه نابع من شك في الحكم خارق للعادة ـ بعبارة أخرى، الإنسان لغز بالنسبة إلى نفسه. ويتضح لنا الأمر إذا نحن أخذنا بالاعتبار افتقاره إلى وسيلة للمقارنة الضرورية لمعرفة نفسه. فهو يعرف أن يميّز نفسه من غيره من الحيوانات من جهة التشريح والفيزيولوجيا. لكنه، من حيث هو كائن واع مفكر يتمتع بهبة الكلام، يفتقر إلى جميع المعيارات اللازمة لتقديره لنفسه. هو ظاهرة فريدة على هذا الكوكب لا يستطيع أن يقارنها بأي شيء آخر. فإمكانية المقارنة، وبالتالي معرفة النفس، لا تنهض إلا إذا استطاع إقامة علاقات مع ثدييات شبه بشرية تسكن كواكب أخرى.

حتى ذلك الحين، ينبغي على الإنسان أن يظل يشبه ناسكاً يعلم أن له، من الناحية التشريحية، انسباء أو أقرباء من أشباه البشر. لكنه، إذا أخذنا بالمظاهر، يختلف اختلافاً خارقاً للعادة عن أبناء عمومته من ناحية النفس psyche (سايكي). وليس كهذه الخاصّية الأهم التي يتصف بها نوعه ما يجعله غير قادر على معرفة نفسه فيظل محجوباً عن نفسه تبعاً لذلك. والفروق في الدرجة التي يجدها بين أبناء جنسه ذات أهمية قليلة بالقياس إلى إمكانيات معرفة النفس التي قد تتحقق لو قُيّض له أن يتقابل مع مخلوق ذي بنْية مماثلة، لكن من أصل مختلف. إن نفسنا، وهي المسؤولة في الدرجة الأولى عن جميع التغيرات التاريخية التي أحدثتها يد الإنسان على سطح هذا الكوكب، تظل لغزاً لا حل له، وأعجوبة لا نفهمها، وموضوعاً لحيرة مُقيمة ـ ملمحاً يشترك بجميع أسرار **الطبيعة**. فيما يتعلق بالأخيرة ما زلنا نأمل بالقيام بالمزيد من الاكتشافات والعثور على أجوبة عن أصعب الأسئلة. لكن فيما يتعلق بالنفس وعلم النفس يبدو أن هناك تردداً غريباً. فعلم النفس ليس أحدث العلوم التجريبية سناً وحسب، وإنما يلاقي صعوبة كبيرة في الاقتراب من أي مكان من موضوعه الخاص.

بنفس الطريقة التي اقتضت أن يتحرر فيها مفهومنا الخاطئ عن النظام الشمسي بفضل كوبرنيكوس، نحتاج إلى بذل أشق الجهود ذات الطبيعة شبه الثورية لكي نحرر علم النفس، أولاً من هوس الأفكار الميثولوجية، ثم من الانحياز الذي يذهب إلى أن النفس

هي، من ناحية، ليست غير ظاهرة ثانوية ناجمة عن سياق كيميائي ـ عضوي في الدماغ أو هي، من ناحية ثانية، مسألة غامضة غير مفهومة بالمرة. إن ارتباط النفس بالدماغ لا يثبت بحد ذاته أن النفس ظاهرة لاحقة، وظيفة ثانوية تتوقف سببياً على سياقات كيميائية ـ عضوية Biochemical. لكننا نعلم حق العلم مقدار ما قد تضطرب به الوظيفة النفسية نتيجة لسياقات نتحقق من وجودها في الدماغ؛ وهذه الحقيقة هي من الوضوح بحيث تبدو الطبيعة الفرعية للنفس استنتاجاً لا مناص منه. غير أن ظاهرات ما وراء علم النفس (البارا ـ سيكولوجيا)، تدعونا إلى الحذر لأنها تدل على تنسيب للمكان والزمان من خلال عوامل نفسية تُلقي الشك على تفسيرنا الساذج المتسرع للمتوازيات القائمة بين النفسيّ والفيزيائي. وفي سبيل هذا التفسير يُنكر الناس لُقى ما وراء علم النفس إنكاراً تاماً، إما لأسباب فلسفية أو عن كسل عقلي. هذا الموقف من الصعب اعتباره موقفاً علمياً مسؤولاً، وإن كان مخرجاً عاميّاً للتهرب من صعوبة عقلية خارقة للعادة. لكي نقدر الظاهرة النفسية، يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا جميع الظاهرات الأخرى التي تصاحبها، وتبعاً لذلك لا يعود بوسعنا ممارسة أي علم نفس يتجاهل وجود الخافية (العقل الباطن أو اللاشعور) أو ما وراء علم النفس (باراسيكولوجيا).

لا تزوّدنا بِنْيةُ الدماغ ولا فيزيولوجيتُهُ بتفسير للسياق النفسي. فللنفس طبيعة خاصة لا يمكن أن ترتد إلى شيء آخر. فهي، كالفيزيولوجيا، تمثل ميداناً من الخبرة قائماً بذاته نسبياً، ينبغي لنا

أن ننسب إليه أهمية خاصة لأنه يحتوي في داخله على أحد شرطين لا غنى عنهما للوجود بما هو كذلك، أعني ظاهرة الوعي أو الواعية. بدون واعية، من الناحية العملية، لا وجود للعالم، لأن العالم لا وجود له بما هو كذلك إلا بمقدار ما ينعكس في الواعية وتعبر النفس عنه تعبيراً واعياً. بذلك تُمنح النفس نبالة مبدأ كوني، يهبها فلسفياً وفي الواقع مركزاً مساوياً لمبدأ الوجود الفيزيائي. إن حامل الواعية هو الإنسان (الفرد) الذي لم يُحْدث النفس بإرادته، بل هي، على العكس، تفعل فيه ويغذيها الصحو التدريجي الذي تحققه الواعية في أثناء الطفولة. وإذا كان من الواجب أن نولي النفس أهمية تجريبية، فإن من الواجب أيضاً إيلاءَ الإنسان (الفرد) مثلَ هذه الأهمية، من حيث هو المجلى المباشر الوحيد للنفس.

هذه الحقيقة يجب أن نؤكدها صراحة لسببين، أولهما أن النفس الفردية، لمجرد فرديتها، هي استثناء من القاعدة الإحصائية، ولذلك إننا نسلبها إحدى خصائصها الرئيسية عندما نخضعها إلى تأثير التساوي الذي ينطوي عليه التقويم الإحصائي. ثانيهما، لا تمنحها الكنائس صلاحية إلا بمقدار ما تعترف بدغماطيقيّاتها ـ بعبارة أخرى، عندما تستسلم لمقولة الجمعية. في كلتا الحالتين، تعتبر إرادة التحقيق الفردي Individuality عناداً أنانياً. فالعلم ينتقص من الفردية واصماً إياها بالذاتية subjectivism، والكنائس تشجبها أخلاقياً ناعتة إياها بالهرطقة والكبرياء. فيما يتعلق بالتهمة الأخيرة، يجب ألا ننسى أن

المسيحية، خلافاً للديانات الأخرى، تحتوي في نواتها رمزاً ينطوي على الطريق الفردي لحياة الإنسان، **ابن الإنسان**، بل انها لتعتبر هذا السياق من التكامل الفردي تجسيداً لله وَوَحْيِهِ، لذلك يكتسب تنامي النفس أهمية لا نكاد ندرك مضامينها كاملةً، لأن الكثير من الانتباه الذي نعطيه إلى العالم الخارجي يسدّ علينا الطريق إلى الخبرة الداخلية المباشرة. لو لم يكن استقلال الفرد السرً الذي يتوق إليه كثير من الناس، لما كانت هذه الظاهرة الملحّة بقادرة على البقاء أمام القمع الجمعي، أخلاقياً أو روحياً.

جميع هذه العقبات تزيد في صعوبة الوصول إلى تفهم صحيح للنفس الإنسانية، لكنها لا تساوي إلا القليل إلى جانب حقيقة جلية أخرى تستحق منا الذكر. هذه الحقيقة هي الخبرة الشائعة في ميدان الطب النفسي ومفادها أن الانتقاص من قيمة النفس ومقاومة التنوير السيكولوجي قائمان إلى حد كبير على الخوف - الخوف المريع من الاكتشافات التي قد تنجم عن التنقيب في أغوار الخافية. هذه المخاوف لا نجدها عند الأشخاص الذين روّعتهم الصورة التي رسمها فرويد للخافية وحسب، بل وإنما نجدها قد أقلقت مؤسس التحليل النفسي نفسه، وهو الذي اعترف لي بأن من الضروري أن نجعل من نظريته في الجنس دغماطيقاً لأنها السور الوحيد من العقل نقيمه في وجه «إنفجار ممكن للفيض الأسود من الخفائية Occultism». بهذه الكلمات كان فرويد يعبّر عن قناعته بأن الخافية تُؤوي الشيء الكثير مما قد يخضع إلى تفسيرات «خفائية»، كما هي الحال في الواقع.

«الرسوم القديمة» Archaic vestiges أو الصور النموذجية Archetypal forms، المؤسسة على الغرائز وتعبّر عنها، تتمتع بصفة روحية تثير الخوف أحياناً. لا يمكن استئصالها لأنها تمثل الأساسات الأعمق في بنْية النفس. كذلك لا يمكن إدراكها عقلياً، وعندما ندمّر مظهراً منها، تعود فتظهر في هيئة مغايرة. وليس كهذا الخوف من النفس الخافية ما يعوق معرفة النفس؛ هذا إلى أنه أخطر عقبة في سبيل تفهم أفضل ومعرفة أوسع لعلم النفس. غالباً ما يبلغ الخوف درجة من الشدة لا نجرؤ معها أن نسلّم به حتى لأنفسنا. نحن هنا أمام سؤال ينبغي لكل شخص ديني أن ينظر فيه بجدّية كبيرة، فلعلّه يصل إلى جواب منير.

السيكولوجيا الموجهة علمياً ملزمة بالسير تجريدياً ـ أي، أنها ملزمة أن تبتعد عن موضوعها لكن ليس إلى الحد الذي يغيب فيه عن نظرها كلّياً. إن هذا يفسر لنا لماذا كانت لُقى علم النفس، لكل الأغراض العملية، بعيدة عن التنوير بعداً كبيراً، ولا أهمية لها في أغلب الأحيان. كلما كان الموضوع الفردي سائداً في مجال الرؤية، كانت المعرفة المستمدة منها أكثر عملية وتفصيلية وأكثر حيوية. معنى هذا إن موضوعات البحث أيضاً تزداد تعقيداً ويزداد معها الغموض التي يكتنف العوامل الفردية بما يتناسب طرداً مع عددها، وبذلك يزداد احتمال الخطأ. لذلك كان من المفهوم تماماً أن يتخوف علم النفس الأكاديمي من هذه المخاطرة وأن يتجنب آثارها المعقدة؛ إذ إن له ملْء الحرية في اختيار الأسئلة التي يطرحها على **الطبيعة**.

أما علم النفس الطبي فبعيد جداً عن هذا الموقع الذي قد يُحسد عليه صاحبه. هنا، الموضوع يطرح السؤال لا المجرِّب. هنا، يجد الطبيب نفسه أمام وقائع ليست من اختياره، ولعلّه ما كان ليختارها لو كانت له حرية الاختيار. المريض، أو المريض، هو الذي يضع الأسئلة الحاسمة ـ بعبارة أخرى، **الطبيعة** تجرّب مع الطبيب وتنتظر منه الجواب. فرادة الإنسان (الفرد) ووضْعُهُ يحدّقان في الطبيب ويطالبانه بالإجابة. وواجبه، وهو الطبيب، يضطره إلى معالجة وضع يحفل بعوامل الشك والغموض. أولاً، يعمد إلى تطبيق مبادئ مَبْنيّة على خبرة عامة، فما يلبث أن يتكشف له أن مبادئ من هذا النوع لا تعبّر عن الوقائع تعبيراً تاماً، ولا تنطبق على طبيعة الحالة التي يتصدى لعلاجها. وكلما تغلغل تفهمه في العمق، فقدت المبادئ العامة معناها. لكن هذه المبادئ هي أساس المعرفة الموضوعية وهي عصا المايسترو التي تضبط عليها هذه المعرفة. مع زيادة شعور المريض والطبيب كليهما انه «تفهم» يصبح الموضوع متّصفاً بالذاتية بصورة مطّردة. ما كان البدء به حسنةً يهدد بأن ينقلب سيئة خطرة. إن جعل الموضوع ذاتياً (بالمصطلح الفني، تحويل وتحويل مضاد) يخلق انعزالاً عن البيئة، حصاراً اجتماعياً لا يرغب فيه أي من الطرفين ولا يحدث إلا عندما يسود «الفهم» ولا يجد «معرفة» تعدّل كفّته. كلما «الفهم» زاد بعداً عن «المعرفة». من شأن «الفهم المثالي» أن يؤدي في النهاية إلى أن يجاري، عن غير دراية، خبرة الطرف الآخر ـ حالة من السلبية غير الدقيقة يضاف إليها ذاتية على أتم ما

تكون الذاتية وانعدام للمسؤولية الاجتماعية. على كل حال، إن «فهماً» يذهب إلى مثل هذه المسافة لهو أمر مستحيل، لأنه يتطلب مواحدة فعلية بين شخصين مختلفين. عاجلاً أو آجلاً، تصل العلاقة إلى نقطة يشعر فيها أحد الطرفين أنه مضطر إلى التضحية بفرديته لكي تتمثلها فردية الآخر. هذه النتيجة التي لا مفر منها تقضي على الفهم، لأن هذا يفترض الحفاظ التام على فردية كلا الفريقين. لذلك ننصح بأن يصل «الفهم» فقط إلى النقطة التي نصل فيها إلى التوازن بين «الفهم» و«المعرفة»؛ لأن «الفهم» بأي ثمن ضارّ بالطرفين كليهما.

تنشأ هذه المشكلة كلما تعين علينا أن «نعرف» و«نفهم» أوضاعاً فردية معقدة. فالمهمة المحددة لعلم النفس أن يزودنا بهذه «المعرفة» وهذا «الفهم». كذلك هي مهمة الكاهن الذي يستلم الاعتراف، الحريص على شفاء الأرواح، لولا أن وظيفته لا بد وأن تجبره على اعتماد عصا المايسترو التي يشكلها انحيازه الجمعي. في اللحظة الحرجة. نتيجة لذلك، ينتقص الانحياز الجمعي من حق الفرد في الوجود بهذه الصفة، وغالباً ما يتقلص في أكثر المناطق حساسية. الوقت الوحيد الذي لا يحدث فيه هذا هو عندما نفهم الرمز الديني، مثلاً نموذج المسيح، فهماً صحيحاً ونشعر أنه مكافئ. إلى أي مدى هذه هي الحالة اليوم أفضّل أن أدع ذلك للآخرين لكي يحكموا. في جميع الأحوال، غالباً ما يتعين على الطبيب أن يعالج مَرْضى لا تعني لهم الحدود الجمعية إلا القليل، أو لا تعني لهم شيئاً على الإطلاق. لذلك يحتّم عليه

واجبه المهني ان يكون لديه الحد الأدنى من المفاهيم التي كوّنتها لديه خبرته من قبل. كذلك يتعيّن عليه، وهو يحترم القصائد والتوكيدات الميتافيزيائية (أعني التي لم يتحقق منها)، الا يُوليها صلاحية شمولية. هذا الحذر مطلوب لأن قسمات الشخصية الفردية يجب ألا تلتوي عن هيئتها بواسطة تدخلات استبدادية من الخارج. على الطبيب أن يترك هذا الأمر إلى تأثيرات البيئة، إلى التطور الجوّاني للشخص نفسه ـ بالمعنى الأوسع ـ إلى القدر ومراسيمه الحكيمة وغير الحكيمة.

لعل الكثير من الناس يرى أن الحذر الشديد أمر مبالغ فيه. لكن، بالنظر إلى وجود مثل هذا الحشد الكبير من التأثيرات المتبادلة في كل حالة تفعل فعلها في سياق جدلي بين فردين، حتى ولو كانت قيادة هذا السياق في أقصى درجة من التحفظ واللباقة، يتعين على الطبيب أن يمتنع عن أي إضافة غير ضرورية إلى العوامل الجمعية التي وقع مريضه تحت تأثيرها. زيادة على ذلك، أنه يعلم ان الوعظ حتى بأعلى المبادئ لا تؤدي الا إلى استثارة المريض إلى عدوان صريح أو مقاومة خفية، وبذلك يخاطر بالغاية من المعالجة من دون حاجة إلى ذلك. إن وضع الفرد النفسي في هذه الأيام معرّض لأخطار شديدة تأتيه من قبل الإعلانات والدعايات وغير ذلك من النصائح والإيحاءات المقصودة نوعاً ما بحيث لا تتاح له غير مرة واحدة في حياته فرصة إنشاء علاقة لا تكرر له بواعث الغثيان من مثل «ينبغي لك»، و«يجب عليك»، وما سوى ذلك من شهادات العجز.

فالطبيب يجد نفسه مضطراً لأن يلعب دور محامي دفاع في وجه العدوان الخارجي على نفس الإنسان (الفرد) من أن تنطلق الغرائز الفوضوية من عقالها هو إمكانية مبالغ فيها جداً، مع وجود الاحتياطات الأمنية الواضحة في الداخل والخارج. فوق كل شيء، هناك الجبن الطبيعي لدى معظم الناس الذي يجب أخذه في الحسبان، ناهيك عن الجانب الأخلاقي، بذوق سليم، وهناك ـ أخيراً لكنه ليس الأقل ـ قانون العقوبات. لا يقارن هذا الخوف بالجهد الهائل الذي يتكلفه الناس عادة في معاونة أولى محرضات التكون الفردي على تحيّز الواعية، ناهيك عن إعمالها. وحيثما اقتحمت هذه المحرضات الفردية، بصورة بالغة الغريزية والعضوية، تعين على الطبيب أن يحميها من اللجوء الأخرق من جانب المريض إلى قصر النظر وانعدام الشفقة والسخرانية.

فيما تمضي المناقشة الجدلية في طريقها، يصل الطرفان (الطبيب والمريض) إلى نقطة يصبح فيها من الضروري تقويم هذه الدوافع الفردية. عندما يحين ذلك، يكون المريض قد اكتسب من يقين الحكم ما يمكنه من التصرف بناء على بصيرته وقراره هو بنفسه لا على مجرد رغبة في محاكاة العرف ـ حتى ولو اتفق أن قبل بالرأي الجمعي. فما لم يقف ثابتاً على قدمي نفسه، لا يفيده ما يُسمَّى بالقيم الموضوعية شيئاً، لأنها عندئذٍ لا تفيد إلا كبديل عن الشخصية، وبذلك تكون عوناً على إخماد الفردية. طبعاً، للمجتمع حق لا يُنازع في حماية نفسه من الذاتيات المتسفّلة Arrant subjectivisms. لكن بمقدار ما يتكون المجتمع نفسه من

أشخاص منزوعة منهم فرديّتهم، بنفس المقدار يقع تحت رحمة الفردانيين القساة الغلاظ الأكباد. لينظّمْ نفسه في جماعات ومنظّمات بالكثرة التي تحلو له ـ ليس كهذا التجمع وانطفاء الشخصية الفردية ما يجعل هذا المجتمع يخضع الخضوع التام لسلطة دكتاتور. لسوء الحظ، لو يجتمع مليون صغر بعضها إلى بعض لا تشكل «واحداً». في النهاية، يتوقف كل شيء على نوعية الفرد، لكن عصرنا، الذي دأب على عادة قصيرة النظر بصفة قاتلة، هي عادة التفكير بلغة الأعداد الضخمة والتنظيمات القبلية، لا يأخذ العبرة مما قد شهده العالم أكثر من اللازم ما يستطيع أن يفعله طوفان بشري عالي الانضباط بإمرة إنسان مجنون ـ على الرغم من أن هذا يتبادر رأساً إلى أذهاننا. لسوء الحظ، لا يبدو أن هذا الإدراك قد سرى بعيداً جداً، وأن العمى الذي أصابنا بهذا الخصوص خطر جداً إلى أقصى حدود الخطر. يمضي الناس سعيدين في التنظيم، مؤمنين بنجاعة دواء العمل الجماعي، بدون أدنى وعي بأن أقوى التنظيمات لا يمكن أن تحافظ على نفسها إلا بأشد أنواع القسوة من جانب زعمائها وبأرخص الشعارات.

يا للغرابة، الكنائس أيضاً تريد أن تستفيد من العمل الجماعي لكي تطرد الشياطين بواسطة «يعلزبوب» ـ نفس الكنائس التي يقوم همّها على خلاص روح الفرد. هي أيضاً، لا يبدو أنها سمعت بشيء من مثل البديهية الأوّليّة عن سيكولوجية القبيلة، إذ يصبح الفرد وسط الجمهور كائناً متدنّياً أخلاقياً وروحياً؛ ولهذا السبب

لا تكلف نفسها كثيراً عناء القيام بمهمتها الحقيقية القائمة على مساعدة الفرد على تحقيق الولادة الروحية*. لسوء الحظ، وإنه لأمر أوضح من أن نبيّنه، هو أن الفرد إن لم يولد ولادة روحية جديدة حقاً، لم يستطع المجتمع أن يولد هذه الولادة هو أيضاً، لأن المجتمع هو مجموع أفراد يحتاجون إلى فداء. لذلك أستطيع أن أرى أن الأمر ليس إلا تضليلاً عندما تعمد الكنائس ـ كما يبدو أنها تفعل ـ إلى ربط الفرد بتنظيم اجتماعي وتردّه إلى حالة من نقص الأهلية أو قلّة المسؤولية، بدلاً من أن تخرجه من الجمهور السادر الذي لا عقل له، وأن تبيّن له أنه العامل المهم الوحيد، وأن خلاص العالم يتكوّن من خلاص الروح الفردية. صحيح أن الاجتماعات العامة تعرض أمامه مثل هذه الأفكار وتعمل على أن تغرسها فيه بقوة إيحاء الجماعة، مما ينتج عنه نتيجة تخريبيّة مُفادها أن التخدير عندما يزول أثره، لا يلبث الإنسان الجمعي أن يخضع إلى شعار أشد وضوحاً وأعلى صوتاً حتّى. إن علاقته الفردية بالله خليقة بأن تكون له درعاً واقية من هذه التأثيرات الضارّة. هل دعا المسيح مرّة تلامذته اليه في اجتماع عام؟ هل أثمر إطعام خمسة آلاف عن اتباع لم يصرخوا بعد ذلك قائلين: «اصلبه!» مع الباقين، عندما أبدى علامات تذبذب حتى الصخرة المسماة بطرس؟ أوليس يسوع وبولس نموذجين أصليين للذين،

(*) استخدم يونغ الاصطلاحين اللاتينين التاليين للتعبير عن هذه الفكرة، هما: metanoia و deo-concedente.

إذ أولوا ثقتهم إلى خبرتهم الجوانية، مضوا في طريقهم الفردي، غير آبهين للرأي العام؟

يقيناً، أن هذه الحجّة ينبغي ألاّ تحملنا على التغاضي عن حقيقة الوضع الذي يواجه الكنيسة. عندما تعمل الكنيسة على إعطاء شكل للقبيلة التي لا شكل لها عن طريق توحيد الأفراد في جماعة من المؤمنين مستعينة وبالإيحاء، وتعمل على جمع هذا التنظيم بعضه إلى بعض، فهي لا تقوم بخدمة اجتماعية عامة وحسب، وإنما تضمن للفرد خدمة لا تقدر بثمن ـ أعني، حياة ذات معنى. غير أن هذه هبات، الأصل فيها أن ترسّخ اتجاهات معينة. لا أن تغيرها. لسوء الحظ، كما تظهر الخبرة، الإنسان الجوّاني يظل بدون تغيير مهما بلغ من اجتماعيته. لا تستطيع بيئته أن تمنحه هِبةً لا يمكنه أن يكتسبها إلا بالجهد والمعاناة. على العكس، إن البيئة الملائمة لا تفعل شيئاً سوى أنها تقوّي الاتجاه الخطر الذي يتوقع أن يأتي كل شيء من الخارج ـ حتى ذلك التحول أو الخلق على صورة جديدة Metamorphosis الذي لا يمكن أن يتيحه الواقع الخارجي ـ أي، التغيير العميق للإنسان الجواني، الذي هو أكثر إلحاحاً نظراً للظاهرة القبلية اليوم والمشكلة التي هي بعد أكبر منها ـ أعني، مشكلة تزايد السكان التي تلوح في أفق المستقبل. لقد حان الوقت لكي نتساءل بالضبط ماذا نُراكم في تنظيمات قبلية، وماذا يكوّن طبيعة الكائن البشري الفرد ـ أي، الإنسان الحقيقي، لا الإنسان الإحصائي. إن هذا لا يكاد أن يكون ممكناً إلا من خلال سياق جديد من الغذاء الذاتي.

إن جميع الحركات القبلية، كما قد نتوقع، تنزلق في منتهى اليسر إلى صعيد منحدر تمثله الأعداد الضخمة. حيثما كانت الكثرة فهناك الأمان؟ ما تؤمن به الكثرة يجب أن يكون حقاً؛ ما تريده الكثرة يجب أن يكون جديراً بأن نعمل من أجله، يجب أن يكون ضرورياً ـ وبالتالي خيراً. في صيحة الكثرة تكمن القوة اللازمة لانتزاع تحقيق الرغبات بالقوة؛ غير أن أحلى شيء هو ذلك الانزلاق اللطيف غير المؤذي إلى حيث ملكوت الطفولة، إلى فردوس الرعاية الأبوية، إلى حيث الرضا وراحة البال وانعدام المسؤولية. كل تفكير، وكل توجيه للانتباه، إنما يتم في القمة؛ توجد أجوبة على جميع الأسئلة؛ وتؤمن المؤونة اللازمة لجميع الاحتياجات. حالة الحلم الطفولي الذي يحلم به إنسان القطيع حالة غير حقيقية حتى إنه لا يفكر أبداً أن يسأل من يدفع من أجل هذا الفردوس. موازنة الحسابات متروكة لسلطة سياسية أو إجتماعية عليا، ترحب بالمهمة، لأن ذلك يزيد من سلطتها؛ وكلما زادت سلطتها، أضحى الفرد ضعيفاً، لا عون له.

حيثما تطورت أحوال اجتماعية من هذا النوع على نطاق واسع إنفتح الطريق أمام الطغيان وانقلبت حرية الفرد عبودية روحية وجسمانية. بما أن كل طغيان، بحكم طبيعته، غير أخلاقي وخال من الرحمة؛ فإن لديه حرية اختيار أساليبه أكثر من المؤسسة التي لا تزال تأخذ في حسابها قيمة الإنسان (الفرد). فإذا اضطرت مثل هذه المؤسسة إلى الدخول في نزاع مع الدولة المنظمة، سرعان ما يتّضح لها العيب الحقيقي الذي يترتّب على أخلاقيتها؛ ولذلك

تشعر انها مضطرة إلى الاستفادة من نفس الأساليب التي ينتهجها خصمها. بهذه الطريقة ينتشر الشر بحكم الضرورة، حتى حين يمكن تفادي العدوى المباشرة؛ ويشتد خطر العدوى، كلما علقنا أهمية حاسمة على الأعداد الضخمة والقيم الإحصائية، مثلما هي الحال في كل مكان من عالمنا الغربي. والقوة الخانقة للقطعان تظهر أمام أعيننا في هيئة أو أخرى كل يوم في الصحافة، والفرد يتقبل ضآلة شأنه كلّياً حتى ليفقد كل أمل في إسماع صوته. المثل العليا المهترئة، الحرية والمساواة والأخوّة، لا تسعفه أبداً، لأنه يستطيع أن يوجه هذا النداء فقط إلى جلاّديه، الناطقين باسم القبيلة.

إن مقاومة القبيلة المنظمة لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا إذا جاءت من قبل إنسان منظم أيضاً في فرديته كتنظيم القبيلة نفسها. اعلم تمام العلم أن هذا الاقتراح لا بد وأن يبدو غير مفهوم تقريباً لإنسان اليوم. فالنظرة المسعفة إلى الإنسان التي كانت سائدة في العصر الوسيط، ومؤدّاها أن الإنسان عالم أصغر، إنعكاس للكون الكبير مصغّراً ـ هذه النظرة إنقضى عليها زمن طويل منذ أن تخلّت عنه (أو تخلّى عنها)، على الرغم من أن صميم وجوده نفسه في عالمه المحيط وعالمه المكيّف لنفسه كان من الممكن أن يعلّمه شيئاً أفضل. ليست صورة العالم الأكبر مطبوعة فيه ككائن نفسي وحسب، وإنما هو يخلق أيضاً هذه الصورة لنفسه على نطاق متسع أبداً. فهو يحمل هذه «المطابقة» الكونية في داخله بفضل واعيته المفكرة من جهة، وبفضل الطبيعة النموذجية ـ البدئية

الوراثية التي تتصف بها غرائزه التي تشدّه إلى بيئته، من جهة ثانية. لكن غرائزه لا تشدّه إلى العالم الأكبر وحسب، وإنما، بمعنى ما، تمزقه شَذَرَ مَذَرَ أيضاً، لأن شهواته تشدّه في اتجاهات مختلفة. بهذه الطريقة يقع في نزاعٍ متواصل مع نفسه ولا ينجح إلا قليلاً في إعطاء حياته هدفاً غيرَ منقسم ـ من أجله، وهذا هو الأصل، يتعين عليه أن يدفع ثمناً باهظاً عندما يكبت جوانب أخرى من طبيعته. غالباً ما يسأل المرء نفسه إن كان هذا النوع من الأحادية يستحق أن نقسر أنفسنا عليه، وهو يرى أن الحالة الطبيعية للنفس البشرية تتكون من نوع من التصادم فيما بين عناصرها المكوّنة لها ومن تناقضية مسلكها ـ أي، من درجة معينة من التفكك Dissociation. البوذية تسمي هذا التعلق بـ «عشرة آلاف الأشياء». مثل هذه الحالة تستدعي النظام والالتئام Synthesis.

كما أن الحركات الفوضوية المؤلفة من القطيع، وكلها تنتهي إلى إحباط متبادل، مجبرةٌ على السير في وجهة محددة بإمرة إرادة استبدادية، هكذا يحتاج الفرد في حالته.المتفككة إلى مبدأ توجيهي وتنظيمي. الواعية ـ الأنيّة تريد لإرادة نفسها أن تلعب هذا الدور، لكنها تتغاضى عن وجود العوامل الخافية (غير الشعورية) الشديدة القوى التي تحبط مقاصدها. فإن كانت تريد أن تصل إلى هدف الالتئام بعد التفكك، يتعيّن عليها أن تعرف طبيعة هذه العوامل. لعل رمزاً دينياً يشمل ويمثل بوضوح ما يبحث عن تعبير له في الإنسان الحديث يستطيع أن يفعل ذلك.

لكن مفهومنا للرمز المسيحي حتى اليوم لم يستطع قط أن يفعل ذلك. على العكس، هذا الانشطار العالمي المخيف يخترق ممالك الإنسان الأبيض «المسيحي»، وقد ثبت أن نظرتنا المسيحية للحياة عاجزة عن الحيلولة دون عودة انتشار نظام اجتماعي قديم كالشيوعية.

ليس معنى هذا أن المسيحية قد انتهت. فأنا، على العكس، مقتنع بأن ما قد عفى عليه الزمن ليس هو المسيحية بل مفهومنا وتفسيرنا لها حيال الوضع العالمي الراهن. الرمز المسيحي شيء حيّ يحمل في ذاته بذور المزيد من النموّ. يمكنه أن يمضي في النموّ؛ لكن يتوقف علينا فقط ما إذا كنا نستطيع أن نُعمل أذهاننا ونتأمل ثانية، وبصورة أكثر شمولية، في المسلمات المسيحية: يتطلب هذا موقفاً مختلفاً جداً تجاه الفرد، تجاه العالم الأصغر، تجاه النفس أو الذات The Self، عن الموقف الذي اتخذناه حتى الآن. إن هذا يفسر لنا لماذا لا يعرف أحد طرق المقاربة المفتوحة أمام الإنسان، ما هي الخبرات الجوّانية التي ما زال باستطاعته أن يختبرها، وما هي الحقائق النفسية التي تنطوي عليها الأسطورة الدينية. فوق هذه تخيم ظلمة بلغ من شمولها حداً لا يستطيع معه أحد أن يرى لماذا ينبغي له أن يهتم، أو، بأي غاية يمكنه أن يلزم نفسه. حيال هذه المشكلة نقف بلا معين.

إن هذا ليس بالأمر الذي يدهشنا، لأن الأوراق الرابحة هي عملياً في أيدي خصومنا. يمكن أن تستجيب لهم الجيوش الجرارة وقدرتها الجبارة الساحقة. السياسة والعلم والتقانة تقف

كلها في صفهم. هذه الحجج العلمية الخادعة تمثل أعلى درجة من اليقين الفكري الذي أنجزه العقل البشري حتى الآن. هكذا يبدو الأمر لإنسان اليوم على الأقل، الإنسان الذي تلقى مئة ضعف من التنوير عن تخلّف وظلاميّة العصور الماضية وخرافاتها. ان يكون معلموه هم أنفسهم قد ضلّوا سواء السبيل إذ عقدوا مقارنات خاطئة بين عوامل غير متكافئة - إن هذا لا يدخل في رأسه ولا تقنعه أبداً. خصوصاً وان النخبة الفكرية التي يطرح عليها أسئلته تكاد تجمع على أن ما يعتبره العلم مستحيلاً اليوم قد كان كذلك في جميع الأزمنة. فوق كل هذا، باتت حقائق الإيمان، التي يمكنها أن تمنحه نقطة ارتكاز غير دنيوية - باتت تُعامَل كما تُعامل حقائقُ العلم. هكذا، عندما يسأل الفرد الكنائس والناطقين باسمها، وهم الذين يُعهد اليهم شفاء الأرواح، يعلّمونه ان الانتماء إلى عقيدة - وهي مؤسسة دنيوية قطعاً - من لوازم الإيمان الديني، وأن حقائق الإيمان التي أصبحت مسائل قابلة للأخذ والردَ هي حوادث تاريخية ملموسة، وأن أداء طقوس معينة يورث آثاراً إعجازية، وأن آلام المسيح قد جرت نيابة عنه وبالتالي خلصته من الخطيئة وآثارها (أي، اللعنة الأبدية). فلو بدأ يفكر في هذه الأشياء، معتمداً على الوسائل المحدودة الموضوعة تحت تصرفه، لتعيّن عليه أن يعترف بأنه لا يفهمها أبداً، وأن ليس أمامه سوى إمكانيتين: إما أن يؤمن بها ضمناً، أو يرفض مثل هذه الإبانات لأنها غير مفهومة بالمرة.

بينما يستطيع إنسان اليوم أن يفكر في جميع «الحقائق» التي

تقدم له على طبق الدولة ويفهمها، يكون فهمه للدين أصعب بكثير بسبب افتقاره إلى الشروح. («ألعلك تفهم ما أنت تقرأ؟ فقال: «كيف يمكنني إن لم يرشدني أحد؟» [أعمال 8: 3]). لكنه، على الرغم من هذا، لم ينبذ جميع معتقداته الدينية، وما ذاك إلا لأن الدافع الديني يقوم على أساس غريزي، وهو لذلك وظيفة إنسانية تخصيصاً. يمكنك ان تنتزع من الإنسان آلهته، لكنك لا تلبث أن تعطيه آلهة أخرى في المقابل. إن زعماء الدولة القبلية لا يستطيعون أن يتجنبوا تأليه العامة لهم، وحيثما لم يمكن فرض مثل هذه الممارسات الفظة بالقوة، تنشأ بدلاً منها عوامل استحواذية، مشحونة بطاقة شيطانية ـ مثلاً، مال، عمل، نفوذ سياسي، وهكذا. عندما نفقد وظيفة بشرية طبيعية ـ أي، عندما لا نعيها ولا نعبر عنها تعبيراً إرادياً، ينتج عن ذلك اضطراب عام. لذلك كان من الطبيعي جداً، مع انتصار إلاهة العقل، أن يبدأ العصاب ينزل بالإنسان الحديث، الذي ينشأ عن تفكك الشخصية شبيه بانشطار عالم اليوم بواسطة الستار الحديدي. هذا الخط الحدودي الذي تعلوه الأسلاك الشائكة يمتد في نفس الإنسان الحديث، سواء أكان يعيش على هذا الجانب أو ذاك منه. وكما أن المعصوب النموذجي لا يعي جانبه الظليل Shadow Side، كذلك ان الفرد السويّ، كالمعصوب، لا يرى ظله إلا في جاره أو في الإنسان الذي يقف وراء الحد الفاصل الكبير. لقد أصبح واجباً سياسياً واجتماعياً أن تُوصم الرأسمالية من ناحية والشيوعية من ناحية ثانية بأنها الشيطان نفسه، لكن نفتن العين الخارجية

ونمنعها من النظر إلى حياة الفرد التي في الداخل. لكن، كما أن المعصوب، على الرغم من عدم شعوره بالجانب الآخر، يمتلك حسّاً غامضاً بأن كل شيء ليس على ما يرام في حياته النفسية، هكذا طوّر الإنسان الغربي اهتماماً فطرياً في نفسه وفي «علم النفس».

بذلك صار يُدعَى الطبيب لكي يَظْهر، طوعاً أو كرهاً، على مسرح الحياة، وراحت تنهال عليه الأسئلة التي تهتم، في الدرجة الأولى، بذلك الجانب الحميم والخبيء من حياة الفرد، لكنها في التحليل الأخير الآثار المباشرة لروح العصر Zeitgeist. هذه المادة، بسبب من اعراضها الشخصية، تعتبر في العادة مادة «معصوبة. وهي هكذا بحق، من حيث إنها مكونة من شوارد* الخيال الطفولية التي لا تتفق مع محتويات نَفس إنسان بالغ وهي لذلك مكبوتة بفعل حكمنا الأخلاقي، بمقدار ما تبلغ الواعية أصلاً. إن معظم الشوارد التي من هذا النوع لا تأتي، بحسب طبيعة الأشياء، إلى الواعية في هيئة طفولية. ومن غير المحتمل أبداً، ولا نقول إلا الأقل عن الموضوع، ان هذه الشوارد كانت واعية في وقت ما ثم كُبتت كبْتاً واعياً. بل تبدو انها كانت ماثلة دائماً، أو، على أي حال، أنها نشأت بصورة غير شعورية ثم ظلت على هذه الحال إلى أن أتاح لها تدخل الطبيب النفساني ان

(*) عَنَيْنا بالشوارد مقابلاً عربياً لكلمة Fantasies. ـ المترجم.

تعبر وحيد الواعية. إن تنشيط الشوارد الخافية سياق يحدث عندما تجد الخافية نفسها في وضع حرج. لو لم يكن الأمر كذلك، لنتجت الشوارد بصورة طبيعية ولأعقبها الاضطراب العصابي المعتاد. في الحقيقة، تنتسب الشوارد التي من هذا النوع إلى الطفولة ولا تسبب الاضطرابات إلا عندما يشدّ أزرها قبل الأوان أحوالٌ غير سويّة في الحياة الواعية. إنما يحدث هذا على وجه الخصوص عندما تصدر عن الأبوين تأثيرات غير ملائمة، تسمّم الجوّ وتُحدث منازعات تقلب ميزان نفس الطفل.

عندما يظهر العصاب على بالغ، تعود إلى الظهور شوارد عالم الطفولة. لكن هذا لا يفسّر لماذا لم تُنَمّ الشوارد آثاراً مَرَضيّة في الفترة البَيْنيّة in the interim period. هذه الآثار لا تنمو الا عندما يواجه الفرد وضعاً لا يستطيع التغلب عليه بالوسائل الواعية. والجمود الناجم عن نموّ االشخصية يفتح سُكْراً للشوارد الطفولية الكامنة، بطبيعة الحال، في كل شخص، لكنها لا تبدي عن فعالية ما دام باستطاعة الشخصية الواعية أن تمضي في طريقها بدون عائق. عندما تصل الشوارد إلى مستوى معين من الشدة، تبدأ باختراق الواعية وخلق وضع من النزاع يدركه المريض نفسه، إذ يشطره إلى شخصيتين متنافرتين. غير أن هذا التفكك كان أُعِدّ له قبل زمن طويل في الخافية، عندما تقوم الطاقة المتدفقة من الخافية (لأنها طاقة غير مستعملة) بتقوية الصفات السلبية التي تتصف بها الشخصية الخافية، وخصوصاً قسماتها الطفولية.

بما ان شوارد الطفل الطبيعية ليست، في العمق، سوى التخيل

المتولد عن الدوافع الغريزية، وبذلك يمكن اعتبارها تمرينات أوّلية لكي تستخدمها الفعاليات الواعية في المستقبل. ينتج عن ذلك أن شوارد المعصوب، حتى وان تغيّرت باثولوجياً (مرضياً) أو انحرفت بفعل انكفاء الطاقة، تحتوي على نواة الفطرة (الغريزة) السليمة، وعلامتها حُسْن التكيف.

ينطوي العصاب دائماً على تغيير والتواء غير متكيّفين للقدرات (الديناميات) السويّة و«للتخيّل» الخاص بها. غير أن الغرائز بطبيعتها محافظة إلى درجة عالية، وذات قِدَم غارق في الزمان السحيق فيما يتعلق بديناميتها وشكلها. فشكلها، عندما يتمثل أمام العقل، يبدو خيالاً يعبر عن طبيعة الدافع الغريزي بصرياً وحسّياً، كالصورة تماماً. فمثلاً، لو استطعنا أن ننظر في نفس Psyche عُثّة اليوكا*، لوجدنا فيها نمطاً من الأفكار تبعث على الخشوع وتسحر الألباب؛ فهي لا تحمل العثّة على نقل فعاليتها المخصبة إلى نبتة اليوكا وحسب، وإنما على «التعرّف» على مجمل الوضع أيضاً. فالغريزة قد تكون كل شيء إلا دافعاً اعمى غير محدد، لأنها تقيم الدليل على تساوقها وتكيّفها مع وضع خارجي محدد. وهذا الظرف يعطيها شكلها النوعي غير المنقوص. كما أن الغريزة أصلية ووراثية، كذلك إن صورتها طاعنة في السنّ ـ أي، إنها نموذجية ـ بدئية archetypal. لا بل هي أقدم وأكثر محافظة حتى من صورة الجسد.

(*) هذا مثال كلاسيكي على تعايش الحشرة مع النبات.

هذه الاعتبارات البيولوجية تنطلق طبيعياً أيضاً على الإنسان العاقل Homo Sapiens الذي لم يزل داخل إطار البيولوجيا العامة على الرغم من امتلاكه للوعي والإرادة والعقل. ان تكون فعاليتنا الواعية ضاربة الجذور في الغريزة وأن تستمد منها قدرتها (= ديناميتها) مثلما تستمد منها ملامحها الأساسية المتمثلة في الصور الفكرية - إن لهذا نفس الأهمية لسيكولوجية الإنسان كالتي لسائر أعضاء مملكة الحيوان. تتكون المعرفة البشرية أساساً من التكيف المتواصل لأنماط الأفكار البدئية التي أُعطيت لنا بَدَرِيّاً a priori. وهذه تحتاج إلى تعديلات معينة، لأنها وهي في صورتها الأصلية تتناسب مع اسلوب قديم من الحياة لا مع متطلبات بيئة متمايزة تخصيصاً. وإذا كان لا بد من المحافظة على دفق الدينامية الغريزية، بما هو ضرورة مطلقة لوجودنا، لا بد لنا عندئذٍ من أن نغيّر قولبة هذه الصور النموذجية - البدئية في أفكار مكافئة لتحديد الحاضر الراهن.



الفصل الخامس

المقاربة النفسية والفلسفية للحياة

لأفكارنا ميل مؤسف، لكن لا بد منه، إلى أن تتخلف عن التغييرات التي تطرأ على الوضع. فهي قلّما استطاعت أن تفعل غير ذلك، لأنها تظل، ما دام كل شيء لم يتغير في العالم، متكيّفة نوعاً ما وتقوم بوظيفتها على نحو باعث على الرضا. وعندئذٍ لا يوجد سبب ملحّ يدعوها إلى التغيّر والتكيّف مجدداً. فقط عندما تتغير الظروف تغيّراً كبيراً ينشأ عنه تصدّع لا يُطاق بين الوضع الخارجي وبين أفكارنا، التي أضحت الآن أفكاراً متخلفة، عندئذٍ تنشأ المشكلة العامة، وهي مشكلة نظرتنا إلى العالم Weltanshauung، أو فلسفة الحياة، وتنشأ معها مشكلة أخرى هي مشكلة إعادة توجيه أو تكييف الصور البدئية التي تحفظ تدفق الطاقة الغريزية. لا يمكن هكذا بكل بساطة أن يحل محلها تصور عقلي جديد، لأن هذا يُقَوْلبه الوضع الخارجي أكثر من اللازم ولا تصنعه احتياجات الإنسان البيولوجية إلى الحد الكافي. زد على ذلك أن هذا التصور لا يبني جسراً يؤدي إلى الإنسان الأصلي

وحسب، وإنما يسدّ الطريق دون مقاربته كُلّيةً. يحدث هذا في التمسك بأهداف التعليم الماركسي الذي يعمل، كما فعل الله نفسه، على خلق الإنسان لكن على صورة **الدولة**. اليوم، أصبحت معتقداتنا ذات صفة عقلانية بصورة متزايدة. لم تعد فلسفتنا طريقة حياة، كما كانت في العصور القديمة؛ انقلبت شأناً فكرياً وأكاديمياً على وجه الحصر. أدياننا الجمعية، بطقوسها ومفاهيمها القديمة ـ مبررةً تبريراً كافياً في ذاتها ـ تُعَبّر عن رؤية للعالم لم تسبب مصاعب كبيرة في القرون الوسطى، لكنها أصبحت غريبة ولا يفهمها إنسان اليوم. رغم أن هذا النزاع مع النظرة العلمية الحديثة تحدوه فطرة أو غريزة عميقة إلى التعلق بأفكار، لو أُخذت حرفياً، لأخرجت من الحساب كل التطورات العقلية التي حدثت في خمسة القرون الماضية. الغرض الواضح من هذا هو الحيلولة دون سقوطه في هاوية القنوط العدمي. لكن حتى عندما نشعر، كعقلانيين، اننا مدفوعون إلى نقد الديانة المعاصرة ووصفها بالحرفانية وضيق العقل والتخلف عن مواكبة العصر، يجب ألاّ ننسى أن العقائد تعلن تعاليم ذات رموز، رغم أن تفسيرها قد يكون موضع خلاف، إلا أنها تمتلك مع ذلك حياة خاصة بها ذات صفة نموذجية. تبعاً لذلك، الفهم العقلي ليس أمراً لا غنى عنه في جميع الأحوال، بل تمس الحاجة اليه فقط عندما لا يكون التقويم من خلال الشعور والحدس كافياً ـ أي، مع الناس الذين يحتل العقل عندهم المرتبة الأولى للإقناع.

بهذا الخصوص، لا شيء أبرز وأظهر من الفجوة التي فُتحت

بين **الإيمان** Faith ولمعرفة Knowledge. لقد بلغ التباين بين هاتين المقولتين مبلغاً يجعلنا نتكلم عنْ عدم إمكان قياس المسافة بينهما وبين طريقتيهما في النظر إلى الحياة. ومع ذلك فهما معنيّتان بنفس العالم التجريبي الذي نعيش فيه. حتى اللاهوت ينبئنا بأن الإيمان تؤيده وقائع أصبحت مفهومة تاريخياً في هذا العالم الذي نعرفه، وان المسيح ولد كما يولد كائن بشري حقيقي، اجترح معجزات كثيرة، وتألّم الألم المقدر عليه، ومات زمن حكم بيلاطُس البنطي، ثم قام بالجسد بعد موته. يرفض اللاهوت كل ميل إلى أخذ هذه الإبانات التي اشتملت عليها أقدم سجلاته على أنها أساطير مكتوبة، وان يفهمها فهماً رمزياً تبعاً لذلك. والحق ان اللاهوتيين أنفسهم هم الذين قاموا مؤخراً بمحاولة ـ لا شك أنها تنازل منهم «للمعرفة» ـ ترمي إلى «نزع صفة الأسطورة» demythologization عن موضوع ايمانهم، لكنهم عند النقاط الحاسمة يرسمون خطوطاً تحكمية. وإنه لأمر أوضح من أن نبيّنه للعقل الناقد إذا قلنا أن الأسطورة جزء لا يتجزأ من كل دين، وانه لا يمكن استبعادها من توكيدات الإيمان بدون الإضرار بها.

القطيعة بين الإيمان والمعرفة عَرَض من أعراض انشطار الواعية (عن الخافية) التي هي من خصائص الاضطراب العقلي في يومنا هذا. يبدو الأمر كما لو أن شخصين مختلفين يُدليان بتصريحات حول موضوع واحد، كل من وجهة نظر نفسه. أو، كما لو أن شخصاً واحداً له إطاران مختلفان لعقله يقوم بوضع

خطوط عريضة لصورة خبرته. فلو استبدلنا بكلمة «شخص» كلمتي «المجتمع الحديث»، لاتضح لنا أن الأخير يعاني من تفكك أو إنفصام عقلي - أي، اضطراب عصابي. بالنظر إلى هذا، لا يجدينا نفعاً أن ينجذب أحد الطرفين عنيداً إلى اليمين والآخر إلى اليسار. إن هذا ما يحدث في كل نفس معصوبة، يا لشدة آلامها! وليس كهذه الآلام ما يأتي بالمريض إلى الطبيب.

كما بينت فيما تقدم مُوجِزاً - وأنا لا أُغفل ذكر تفصيلات عملية معينة يُوقع إغفالُها القارئَ في ارتباك - يتعين على الطبيب أن ينشئ علاقة مع كلا نصفي شخصية المريض، لأنه من كليهما معاً، لا من أحدهما على حساب الآخر، يستطيع أن يؤلف إنساناً واحداً تاماً. البديل الآخر هو ما كان يقوم به المريض دائماً لأن النظرة العصرية للعالم لا تقدم له وجهة أخرى. إن وضعه الفردي هو، في المبدأ، نفس الوضع الجماعي. فهو عالم أصغر اجتماعي social microcosm، يعكس على أصغر نطاق كميات المجتمع عموماً. أو، بالعكس، من حيث إنه أصغر وحدة اجتماعية، ينتج الانفصام الجمعي بالتراكم. هذه الإمكانية الأخيرة هي الأكثر احتمالاً، من حيث إن حامل الحياة المباشر المحسوس الوحيد هو الشخصية الفردية، على حين أن المجتمع والدولة فكرتان تواضع الناس عليهما ولا يمكنهما الادّعاء بصفة الحقيقة الا بمقدار ما يمثلهما عدد معين من الأفراد.

لقد أُغفل تماماً، أو كاد، الانتباهُ إلى أن عصرنا، على الرغم من كل عدم تديّنه، محمّلٌ وراثياً بالإنجاز الذي ميّز العهد المسيحي:

سيادة الكلمة (اللوغوس) التي ترمز إلى الشخص المركزي في إيماننا المسيحي. فقد أصبحت الكلمة إلهنا حرفياً وظلت هكذا حتى حين لم نعد نعلم شيئاً عن المسيحية الا عن طريق السماع. فكلمتان من مثل «المجتمع society و«الدولة» state بلغ من حسّيّتهما حداً حتى كادتا أن تُشخّصا. في رأي رجل الشارع، «الدولة» أكبر بكثير من أي ملك في التاريخ، هي الينبوع الذي لا ينضب لكل خير؛ «الدولة» يُتَوَسَّلُ إليها، وتُحمَّل المسؤولية، ويُصرَخ في وجهها، وهكذا دواليك. والمجتمع يُرفع إلى مرتبة مبدأ أخلاقي أعلى؛ بل تُسند اليه قدرات خلاّقة إيجابياً.

لا يبدو أن أحداً يلاحظ أن لتقدير «الكلمة» واحترامها، مما كان ضرورياً في مرحلة معينة من التطور التاريخي، هذا الجانب الظلّي الرهيب. أي، في اللحظة التي بلغت فيها الكلمة، نتيجة لقرون من التعليم، صلاحية شمولية، انفصلت عن رابطتها الأصلية التي تربطها بالشخص الإلهي، فكان من ذلك الكنيسة المشخّصة، والدولة المشخّصة؛ أصبح الاعتقاد يقيناً، وأصبحت الكلمة نفسها شعاراً جهنمياً قادراً على كل فعل من أفعال الخداع. ومع اليقينية جاءت الدعاية والإعلان لكي يخدعا المواطن بالسمسرات والمساومات، ويبلغ الكذب نسباً لم تكن معروفة قط من قبل تاريخ العالم.

هكذا أصبحت الكلمة في أيامنا مصدراً للريبة وانعدام الثقة من جانب الكل تجاه الكل، بعد أن كانت في الأصل تعلن وحدة جميع الناس واتحادهم في شخص **الإنسان العظيم**. التصديقية

هي إحدى ألدّ أعدائنا، فهي البديل الذي يلجأ اليه المعصوب لكي يخنق الشكاك الذي يقبع في صدره أو لكي يطرده من الوجود. يعتقد بعض الناس أنه ما عليك إلا أن «تقول» لشخص أنه «ينبغي» أن يفعل كيت وكيت حتى تضعه على المسار الصحيح. لكن ما إذا كان يستطيع، أو يريد، أن يفعله ـ هذه مسألة أخرى. لقد توصّل علم النفس إلى رؤية أن لا شيء يمكن تحقيقه بالقول أو الإقناع أو اللوم أو بإسداء النصح. إنما يجب عليه أيضاً أن يتعرف إلى التفاصيل وان تكون لديه معرفة بالموجودات النفسية لدى مريضه. لذلك يتعين عليه أن يشيّد علاقة مع فردية المريض وأن يعرف طريقه في جميع الزوايا والشقوق في عقله، معرفة تتجاوز بكثير قدرة معلم أو حتى موجّه ضمير. موضوعيّته العلمية، التي لا تستبعد شيئاً، تتيح له أن يرى مريضه لا مجرد كائن بشري وحسب، وإنما ككائن أقلّ من إنسان، مقيد في جسده، كالحيوان. لقد وجّه تطوّرُ العلم اهتمامَهُ إلى ما وراء نطاق الشخصية الواعية، إلى عالم الغريزة غير الواعية التي يحكمها الجنس Sexuality وسائق السلطة Power drive (أو توكيد الذات Self-assertion) اللذان يتطابقان مع مفهومي الأخلاق عند القديس أوغسطين: Concupiscentia & superbia التصادم بين هاتين الغريزتين (حفظ النوع: الجنس، وحفظ الذات: إرادة السيطرة) هو مصدر المنازعات الكثيرة. لذلك فهما الموضوع الرئيسي للحكم الأخلاقي، الذي يهدف إلى الحيلولة دون وقوع هذه المصادمات الغريزية على قدر الإمكان.

كما بينت فيما تقدم، للغريزة جانبان رئيسيّان: ديناميّة أو سَوْق أو جَرْف من جانب، معنى وقصد محدّدان من جانب آخر. من المحتمل جداً أن يكون لجميع الوظائف النفسية عند الإنسان أساس غريزي، مثلما هو الحال عند الحيوان. من اليسير أن نرى في الحيوان وظائف غريزية تقوم بدور مرشد روحي spiritus rector يوجه سلوكها. لا شك أن هذه الملاحظة لا نعود نراها عندما تبدأ قابلية التعلم بالنموّ، مثلاً لدى القردة العليا والإنسان. عند الحيوان، نتيجة لقابليته للتعلم، خضعت الغريزة إلى تكييفات وتمايزات، كثيرة. أما عند الإنسان المتحضر فقد بلغ انشطار الغرائز لديه مبلغاً بات معه التعرف على الأساسيات القليلة منها في صورتها الأصلية على أي درجة من اليقين أمراً غير ممكن. أهم هذه الغرائز الغريزتان الأساسيتان وما تفرّع عنهما، وما زالتا الهم الوحيد لعلم النفس الطبي حتى الآن. لكن الباحثين وجدوا أن متابعة تفرعات الغرائز يصلون إلى نوع من التداخل لا يستطيعون أن ينسبوه إلى أيٍّ من المجموعتين في شيء من اليقين. لنأخذ مثالاً واحداً: كان مكتشف غريزة السيطرة في ريب مما إذا كان التعبير الذي لا شك في وضوحه عن الغريزة الجنسية لا يمكننا أن نفسره خيراً من كونه «ترتيب سلطة» Power arrangement. وقد شعر فرويد نفسه انه مضطر إلى الاعتراف بوجود «غرائز ـ انيّة» Ego-instincts بالإضافة إلى الغريزة الجنسية الطاغية ـ تنازل واضح لصالح المنطلق الأدلري. بالنظر إلى هذه الحالة من انعدام اليقين، ليس بعجيب أن نفسر معظم أعراض

العصاب، بدون تناقض تقريباً، بلغة أي من النظريتين. لكن هذه الحيرة لا تعني أن هذا المنطلق أو ذاك، أو المنطلقين كليهما، غير صحيح. بل كلاهما صالح نسبياً. وخلافاً لانحيازات دغماطيقية أحادية معينة، تسمحان بوجود غرائز أخرى ومنافستهما. كما قلت، على الرغم من أن الغريزة البشرية مسألة أبعد ما تكون عن البساطة، لعلنا لا نخطئ إذا افترضنا أن قابلية التعلم، وهي صفة تكاد أن تقتصر على الإحسان، قائمة على أساس التقليد (المحاكاة) التي نجدها عند الحيوان. فمن طبيعة هذه الغريزة أن توقع الاضطراب في الفعاليات الغريزية الأخرى ثم تعمد إلى تعديلها، كما يمكن أن نلاحظ ذلك في أغاريد الطيور عندما تتعلم ألحاناً أخرى.

لا شيء يبعد الإنسان عن غريزته (= فطرته) أكثر من قابليته للتعلم التي يتضح أنها سائق طبيعي نحو التغييرات التقدمية لأساليب السلوك البشري. فهي، أكثر من أي شيء آخر، مسؤولة عن الشروط المتبدّلة لوجودنا والحاجة إلى التكيفات الجديدة التي تأتي بها الحضارة. وهي أيضاً مصدر الاضطرابات النفسية الكثيرة والمصاعب التي تتوافق مع ابتعاد الإنسان التدريجي عن أساسه الغريزي (الفطري) ـ أي، مع اقتلاعه من جذوره وتواحده مع معرفته الواعية لنفسه، ومع اعتنائه بواعيته على حساب الخافية. والنتيجة هي أن الإنسان الحديث لا يمكنه أن يعرف نفسه إلا بمقدار ما يمكنه أن يصبح واعياً لنفسه ـ وهي قابلية تتوقف إلى حد كبير على الشروط البيئية وعلى سائق المعرفة وما يوجب

التحكم بها من تعديلات معينة يُدخلها على ميوله الغريزية الأصلية. ولذلك تتوجه واعيته بصفة رئيسية إلى ملاحظة العالم حوله والبحث فيه. ومع هذا العالم وغرائبه يتعين عليه أن يكيّف موارده النفسية والتقانية. وان هذه لمهمة شاقة، وان القيام بها لأمر بالغ الفائدة، حتى لينسى المرء نفسه في غمرة سياقتها، زائغ البصر عن طبيعته الفطرية، مستبدلاً بوجوده الحقيقي مفهومه الخاص عن نفسه، بهذه الطريقة ينزلق من حيث لا يشعر في عالم مفهومي صِرْفاً حيث تحل نواتج فعاليته الواعية محل الواقع.

لا بد وأن يؤدي إنفصال الإنسان المتحضر عن طبيعته الفطرية (الغريزية) إلى خوض صراع بين الواعية والخافية، بين الروح والطبيعة، بين المعرفة والإيمان، وهو إنشطار يصبح مَرَضياً في اللحظة التي لا تعود فيها واعيته بقادرة على إهمال جانبه الغريزي أو قمعه. ان تراكم أفراد وجدوا أنفسهم منخرطين في هذه الحالة الحرجة يبدؤون تشكيل حركة قبلية ترمي إلى نصرة المقموعين. وفقاً للاتجاه السائد الذي تتخذه الواعية، وهو البحث عن مصدر جميع العلل في العالم الخارجي، تنطلق الصيحة من أجل التغييرات الاجتماعية والسياسية التي، كما يُفترض، تحل تلقائياً المشكلة البالغة العمق المُتمثلة في انشطار الشخصية. لذلك، حينما يتحقق هذا المطلب، نجد أن أحوالاً سياسية واجتماعية ما تلبث ان تنشأ تقوم بإرجاع نفس العوامل في صور أخرى. إن ما يحدث عندئذٍ ليس إنقلاباً في الأوضاع: ما هو في الحضيض يصعد إلى القمة، والظل يحل محل النور. وبما أن الأول

فوضوي ومتمرد دائماً، تعين على حرية المستضعف «المتحرر» أن تعاني الإبادة الدراكونية*. كل هذا لا يمكن تجنّبه، لأن أصل الشر لم يُمسَّ؛ كل ما في الأمر أنِ الوضع المضاد قد ظهر إلى النور.

الثورة الشيوعيّة حطّت من قيمة الإنسان إلى مستوى أدنى بكثير مما فعلت السيكولوجيا الجمعية الديمقراطية لأنها تسلبه حريته لا بالمعنى الاجتماعي وحسب، وإنما بالمعني الأخلاقي والروحي أيضاً. بمعزل عن المصاعب السياسية، لقد عانى **الغرب** من عيب سيكولوجي كبير أظهر نفسه بصورة قبيحة حتى في أيام النازية الألمانية: إن وجود دكتاتور يسمح لنا أن نشير بإصبعنا بعيداً عن أنفسنا وإلى **الظل**. **والظل** واضح انه على الجانب الآخر من الحدود السياسية، بينما نقف نحن على الجانب الآخر الطيّب، ونتمتع بامتلاك المثل الأعلى الصحيح. ألم يعترف مؤخراً سياسي شهير بأن «ليس عنده تخيّل للشر»؟ كان يعبر في هذا، باسم القبيلة، عن وقوع الإنسان **الغربي** في خطر فقدان ظلّه كلّياً، ومواحدة نفسه بشخصية خيالية وهمية ومواحدة العالم مع صورة مجردة رسمتها له العقلانية العلمية scientific rationalism. إن خصمه الروحي الأخلاقي، وهو خصم حقيقي بمثل ما هو حقيقي تماماً، لم يعد يسكن في صدره، بل فيما وراء خط التقسيم الجغرافي، الذي لم يعد يمثل حاجزاً سياسياً خارجياً، بل إنشطاراً

(*) يريد بالإبادة الدراكونية «طوفان نوح». ـ **المترجم** ـ

للواعية عن الخافية بصورة خطرة متزايدة. فالتفكير والشعور يفقدان قطبيتهما الجوّانية، وحيثما غدا التوجهِ الديني عقيم الأثر، لا يكون في وسع حتى إله في المتناول أن يكبح جماح الوظائف النفسية المنطلقة.

إن فلسفتنا العقلانية لا تكلف نفسها عناء السؤال عما إذا كان الشخص الآخر الذي في داخلنا، الذي ندعوه الظل انتقاصاً منه، متعاطفاً مع مقاصدنا ونيّاتنا الواعية. من الواضح أنها لا تعلم أننا نحمل في أنفسنا ظلاً حقيقياً يقوم وجوده في طبيعتنا الغريزية. تشكل دينامية الغرائز وتخيلاتها بَدَريّة an a priori لا يمكن إنساناً أن يتغاضى عنها بدون أن يعود ذلك عليه بأشد الأخطار. يترتب على انتهاك الفطرة (الغريزة) أو إهمالها آثاراً أليمة ذات طبيعة فيزيولوجية وسيكولوجية يقتضي لإزالتها، فوق كل شيء، معونة طبية.

طَوال أكثر من خمسين عاماً كان بمقدورنا أن نتعلم أن هناك خافية توازن الواعية. لقد أمدّنا علم النفس الطبي بجميع البراهين المختبرية والتجريبية الضرورية على هذه الحقيقة. ثمة حقيقة نفسية خافية قام الدليل على تأثيرها في الواعية ومحتوياتها. كل هذا أصبح معروفاً، لكننا لم نستخلص منه نتائج عملية. ما زلنا ماضين في الفكر والعمل كما لو كنا وتراً لا شفعاً. تبعاً لذلك، نتصور أنفسنا غير مؤذين، معقولين وإنسانيين فكر في سلب الثقة عن دوافعنا أو سؤال أنفسنا عن كيفية شعور الإنسان الجوّاني تجاه الأشياء التي نفعلها في العالم الخارجي. والحق انه لَطَيْش

وسطحية وبُعْد عن المعقول، كما هو ضارّ بالصحة النفسية، أن نغض البصر عن رجع ومنطلق الخافية. بوسع امرئ أن يعتبر معدته أو قلبه لا شأن لهما أو جديرَيْن بالازدراء، لكن هذا لا يمنع أن يكون لِلْكِظّة (= التخمة) أو الإجهاد آثار تعود بالضرر على مجمل كيان الإنسان. ومع ذلك نظن أن الأخطاء النفسية وآثارها يمكن التخلص منها بمجرد الكلمات؛ ذلك أن «النفسي» يعني أقل من الهواء لدى معظم الناس. ومع ذلك ليس يَسَعُ أحداً أن ينكر أنه لولا النفس لم يكن ثمة عالم أبداً، وأقل من ذلك بعد، العالم البشري. والحق أن كل شيء يتوقف على الروح البشري ووظائفه. ينبغي أن يكون جديراً بكل الانتباه الذي نستطيع أن نمنحه إياه ـ خصوصاً في هذه الأيام، إذ يسلّم الجميع بأن الخير والشر في المستقبل لا تقرّره غارات تشنّها حيوانات متوحشة ولا كوارث طبيعية ولا خطر أوبئة تعم العالم، بل لا شيء سوى التغيرات التي تحدث للإنسان. لا يحتاج الأمر إلى أكثر من اختلال طفيف في التوازن يصيب رؤوس بضعة من حكامنا حتى يغرق العالم في الدم والنار والنشاط الإشعاعي. الوسائل التقانيّة اللازمة لذلك جاهزة لدى كلا الفريقين. ثم إن مداولات واعية معينة، لا رقابة عليها من جانب خصم داخلي، تجعلنا ننغمس في منتهى السهولة فيما نريد تجنب وقوعه، مثلما رأينا في مثال «الزعيم» الأوحد. ما زالت واعية الإنسان شديدة التعلق بالأشياء الخارجية حتى ليجعلها هي المسؤولة بصفة حصرية، كما لو أن القرار يوقف عليها وحدها. ان يكون بمقدور

حالة نفسية لأفراد معيّنين أن تتحرر مرة واحدة من مسلك الأشياء ـ إن هذا لشيء بالغ الندرة، على الرغم من ملاحظة لاعقلانيات هذا النوع كل يوم وحدوثها لكل شخص.

إن بؤس الواعية في عالمنا يرجع في الدرجة الأولى إلى فقدان الفطرة (الغريزة)، والسبب نموّ العقل البشري على مدى الدهر الماضي. كلما اشتدت سيطرة الإنسان على الطبيعة، إكتسب المزيد من المعرفة والحذق، وتعمقت زرايتُهُ للطبيعي وللطارئ غير المحسوب، ولما يحدث على نحو غير عقلاني ـ بما في ذلك النفس الموضوعية objective psyche، التي هي كل ما ليس بالواعية. فالخافية هي النفس الموضوعية في مقابل ذاتية العقل الواعي، وهي تجلّي نفسها بصفة رئيسية في هيئة مشاعر مضادة وشوارد Fantasies وانفعالات ودوافع داخلية وأحلام، ليس أي منها من صنع من تتجلّى له، لكنها تَحُلُّ عليه موضوعياً. حتى اليوم ما زال علم النفس، في معظمه، علم المحتويات الواعية، يُقاس إلى أبعد حدٍ ممكن بالمستويات الجمعية. وأصبحت النفس الفردية شيئاً طارئاً، ظاهرة «عشوائية»، بينما يجري تجاهل الخافية، التي لا يمكن أن تظهر إلا في الكائن البشري الحقيقي، «وهي المعطى على نحو غير عقلاني»، يجري تجاهلها كلّياً. لم يكن هذا التجاهل نتيجة للإهمال أو قلة المعرفة، بل نتيجة لمقاومة مباشرة لمجرد أن يكون ثمة مرجعية نفسية ثانية سوى «الأنيّة» Ego. تبدو تهديداً إيجابياً للأنيّة إذ تجعل سلطتها محل ارتياب. الشخص الديني، من ناحية ثانية، اعتاد التفكير بأنه ليس

السيد الوحيد في بيته. يؤمن بأن الله، لا نفسه، هو الذي يقرر في النهاية. لكن كم منا من يجرؤ على أن يدع إرادة الله تقرر بدلاً منه؟ وأي منا لا يشعر بالحرج لو قال إلى أي مدى جاءه القرار من الله نفسه؟

الشخص الديني، بمقدار ما نستطيع أن نرى، يقف مباشرة تحت تأثير الرجع الآتي من الخافية. الأصل أن يدعو هذا الموقف فعل ضمير. لكن، بما أن نفس القاع النفسية تنتج رجوعات غير الرجوعات الأخلاقية، يقيس المؤمن ضميره بالمستوى الأخلاقي التقليدي ـ وبالتالي بقيمة جمعية، وفي هذه المحاولة يلقى دعماً شديداً من جانب الكنيسة. فما دام الفرد يستطيع أن يتمسك بمعتقداته التقليدية، ولا تتطلب منه الظروف السائدة في زمانه توكيداً أشد على استقلاله الفردي، يستطيع أن يطمئن إلى الوضع. لكن الوضع يتبدّل جذرياً عندما يظهر الإنسان ذو العقل الدنيوي، الموجه صوب العوامل الخارجية، الفاقد لمعتقداته الدينية، عندما يظهر جمعاً en masse، كما هو الحال اليوم. عندئذٍ يضطر المؤمن إلى اتخاذ موقف المدافع، وعليه أن يحصّن نفسه بالاستناد إلى الأسس التي تنهض عليها معتقداته. أضحى الآن لا تدعمه قوة الإيحاء الهائلة الآتية من الإجماع الكلّي consensus omnium، وهو على علم بوهن الكنيسة ومسلماتها الدغماطيقية. لمقاومة ذلك، توصي الكنيسة بالمزيد من الإيمان، كما لو أن هبة النعمة هذه تتوقف على حسن نيّة المرء ومسرّته. غير أن مركز الإيمان ليس هو الواعية، بل خبرة

دينية عفوية تزجّ بإيمان الفرد في علاقة مباشرة مع الله.

هنا يجب أن نسأل: هل عندي خبرة دينية وعلاقة مباشرة مع الله ـ وبالتالي ذلك اليقين الذي يحفظني، وأنا الكائن الفرد، من الانحلال في القبيلة؟



الفصل السادس

معرفة الذات

عن هذا السؤال ثمة جواب بالإيجاب فقط عندما يريد المرء أن يلبّي المتطلبات التي يقتضيها الفحص الدقيق لذاته ـ وبالتالي معرفته لذاته. فإذا ترسّم أثر نيّته حتى النهاية، لم يكتشف بعض الحقائق الهامة حول نفسه وحسب، وإنما يكتسب ميزة سيكولوجية: ينجح في رؤية نفسه جديرة بانتباه جادّ واهتمام شديد. يضع يده على إعلان يتعلق بكرامته الإنسانية الخاصة ويتخذ الخطوة الأولى صوب الأسس التي تقوم عليها واعيته ـ أعني، صوب الخافية، المصدر الوحيد للخبرة الدينية الذي يمكن بلوغه. إن هذا لا يعني أن ما ندعوه الخافية هو والله شيء واحد أو هو يحل محله. إنه الوسيط الذي يبدو أنه الخبرة الدينية تنطلق منه. فيما يتعلق بالسبب البعيد الذي قد يكون سبباً لهذه الخبرة، يكمن الجواب فيما وراء الخبرة البشرية. إن معرفة الله مشكلةٌ مفارقة.

الشخص الديني يتمتع بميزة عظيمة عندما يتصدى للإجابة عن

السؤال الحاسم الذي يخيّم فوق زماننا مهدداً: لديه فكرة واضحة عن الطريقة التي يقوم عليها وجوده الذاتي في علاقته مع «الله». أضع كلمة «الله» وسط علامات اقتباس لكي أبيّن أننا نتعامل مع فكرة انثروبومورفيّة (مؤنسنة) ذات ديناميَّة ورمزيّة تتسربان من خلال وسيط النفس الخافية. وكل من يريد أن يفعل ذلك يستطيع على الأقل أن يدنو قرباً من منبع مثل هذه الخبرات، لا فرق إن كان يؤمن بالله أو لا. بدون هذا القرب، لا يمكننا إلا في حالات نادرة أن نشهد تلك التحولات الإعجازية التي تشكل خبرة بولس الدمشقية نموذجها الأصلي. ان تكون الخبرات الدينية موجودة ـ ان هذا لم يعد بحاجة إلى برهان. لكنه يظل أمراً مشكوكاً فيه ما إذا كان ما تسميه الميتافيزيائيات الله والآلهة هو الأساس الحقيقي لهذه الخبرات. وبالفعل، إن السؤال لا معنى له، وهو يجيب نفسه بنفسه بسبب ذلك النشاط الروحي الطاغي ذاتياً الذي تتمتع به الخبرة. وكل من قدر له أن يختبرها يقع في قبضتها ولذلك لا يكون في وضع يسمح له بالخوض في تأملات ميتافيزيائية أو ابيستمولوجية (معرفية) عديمة الجدوى. اليقين المطلق يأتي ويأتي معه برهان نفسه ولا يحتاج إلى براهين انثروبومورفية (مؤنسنة).

بالنظر إلى شيوع الجهل والتحامل على علم النفس يجب أن نأخذ في الحسبان تلك البليّة الناشئة عن بدوّ الخبرة الوحيدة التي تجعل للوجود الفردي معنى متأصلة في وسيط واثق من أنه يدرك ما عند كل شخص من تغرّضات. مرة أخرى نسمع الشكّاك يقول: «ما الخير الذي قد يأتي من الناصرة؟». الخافية، إن لم

نعتبرها نوعاً من مزبلة تقع تحت العقل الواعي، يُفترض فيها، على كل حال، أنها «طبيعة حيوانية ليس إلا». لكن، في الحقيقة، وبالتحديد، إن مداها وتكوينها أمران غير مؤكدين، حتى ان المبالغة في تقويمها، أو التقليل من قيمتها، أمر لا يقوم على أساس، ويمكننا أن ننبذه على أنه تغرّض ليس إلاّ. في جميع الأحوال، تبدو مثل هذه الأحكام غريبة جداً على أفواه المسيحيين، الذين وَلَدَ ربُّهم نفسَهُ فوق كومة قش في اصطبل (مِزْود)، وسط حيوانات أهلية. ولو أنه وَلَدَ نفسه في معبد، لكان ذلك أدعى إلى تذوق العامة. بنفس الطريقة، يأمل الإنسان العامّي ذو العقل الدنيوي بحدوث الخبرة الروحية في الاجتماعات العامة التي تتيح قاعاً أكثر خداعاً من الروح الفردي بما لا نهاية له. حتى مسيحيو الكنيسة يشتركون في هذه الخدعة الضارة.

إن إصرار علم النفس على أهمية السياقات الخافية للخبرة الدينية شيء غير شعبي إلى أقصى حد، وانعدام الشعبية هذا ليس أقل من انعدام شعبية الحق السياسي لدى اليسار. عند الأول، العامل الحاسم هو الوحي التاريخي الذي جاء إلى الإنسان من الخارج. وعند الثاني، الحق السياسي لَغْوٌ صِرْف، وليس للإنسان من وظيفة دينية على الإطلاق، اللهم إلا الإيمان بعقيدة الحزب، عندما يُصار فجأة إلى استدعاء أكثف الإيمان. على رأس هذا، تؤكد مختلف العقائد أشياء مختلفة جداً، وكل منها يدّعي امتلاك الحقيقة المطلقة. ومع ذلك فنحن نعيش اليوم في عالم واحد أضحت فيه المسافات تحسب بالساعات لا بالأسابيع والأشهر.

والعروق الغريبة لم تعد صناديق عجائب Peepshows في المتاحف الإثنولوجية. لقد أصبحوا جيراننا، وما كان بالأمس امتيازاً يتمتع به عالم الأجناس البشرية أضحى اليوم مشكلة سياسية واجتماعية وسيكولوجية. وقد بدأت الدوائر الإيديولوجية تَتَماسُّ وتتداخل فيما بينَها. ولعل الزمان الذي يصبح فيه التفاهم في هذا الميدان أمراً ملحّاً ليس ببعيد. يستحيل عليك أن تجعل نفسك مفهوماً من الآخر بدون أن تفهم فكره فهماً جيداً. التبصرة اللازمة لهذا الفهم المتبادل سوف تحدث ارتدادات على كلا الجانبين. لا شك أن التاريخ لسوف يتجاوز الذين يشعرون أن مهمتهم هي مقاومة هذا التطور المحتّم، مهما كان التعلق بما هو أساسي وخيّر في تقاليدنا أمراً مرغوباً فيه وضرورياً من الناحية السيكولوجية.

على الرغم من جميع الاختلافات، لسوف تؤكد وحدة النوع البشري نفسها بصورة لا قبل لأحد بمقاومتها. بناء على هذا الاحتمال، لقد غامرت العقيدة الماركسية بحياتها، على حين أن الغاية بالخروج من محنته بفضل التقانة والعون الاقتصادي. الشيوعية لم تتغاضَ عن الأهمية الكبيرة التي يتمتع بها العنصر الايديولوجي وعالمية المبادئ الأساسية. أما أمم الشرق الأقصى فتشترك معنا في الوهن الإيديولوجي، وهي قابلة للعطب مثلنا تماماً.

التقليل من أهمية العامل السيكولوجي خليق بأن يثأر لنفسه في قسوة. ولذلك حان الوقت لكي نتدارك أنفسنا في هذا الأمر. في

الوقت الحاضر، يجب أن يبقى هذا أُمْنية دينية Pious wish، لأن معرفة الذات، مثلما هي فاقدة الشعبية إلى حد كبير، تبدو هدفاً مثالياً يثير المقت، وتفوح منها رائحة أخلاقية، وينصرف اهتمامها إلى الظل السيكولوجي الذي ننكره في العادة، كلما كان ذلك ممكناً، أو على الأقل لا نتكلم عنه. المهمة التي تواجه ُعصرنا لتكاد أن تكون ذات صعوبة لا يمكن تذليلها. تلقى على مسؤوليتنا أعلى المطالب ان كنا نريد أن نتفادى ارتكاب ذنب آخر من ذنوب «الإكليروس». يتوجه بنفسه إلى الشخصيات القياديّة النافذة الذين لديهم ما يلزم من الذكاء الذي يتيح لهم فهم الوضع الذي عليه عالمنا. قد نتوقع منهم أن يرجعوا إلى ضمائرهم يستشيرونها. لكن بما أن المسألة ليست مسألة إدراك عقلي بل قرارات أخلاقية، لسوء الحظ لا نملك سبباً للتفاؤل. الطبيعة، كما نعلم، ليست مسرفة في نعمها إلى حد تجمع فيه على صعيد واحد الذكاء الرفيع إلى المواهب القلبية معاً. الأصل، أن نفتقر إلى أحدهما عندما يتوفر الآخر، وحيثما كانت لنا قدرة بلغت درجة الكمال كان ذلك على حساب جميعْ القدرات الأخرى عموماً. الفرق بين الفكر والشعور، اللذين يعترض كل منهما سبيل الآخر في أحسن الأحوال هو فصل مؤلم في تاريخ النفس البشرية.

لا معنى للقول أن المهمة التي يفرضها علينا عصرنا هي مطلب أخلاقي. نستطيع، في أحسن الأحوال، أن نجعل الوضع العالمي السيكولوجي من الوضوح بحيث يستطيع أن يراه حتى لقصير

النظر، ومَنح النطق لكلمات وأفكار يستطيع أن يسمعها حتى الثقيل السمع. فقد نأمل من أهل الفهم والنية الحسنة شيئاً؛ ولذلك يتعين علينا ألاّ نكلّ عن تكرار هذه الأفكار والتبصيرات التي نحتاج اليها. أخيراً، حتى الحقيقة تستطيع أن تنتشر، لا الكذبة الشعبية وحدها.

بهذه الكلمات أود أن ألفت انتباه القارئ إلى الصعوبة الرئيسية التي يتعين عليه أن يواجهها. الرعب الذي مارسته الدول الدكتاتورية على بني الإنسان ما هو الا تتويج لجميع الفظائع التي ارتكبها أسلافنا في الماضي غير البعيد. بمعزل تام عن الممارسات الوحشية وحمّامات الدم التي اقترفتها الأمم المسيحية بعضها بحق بعض على مدى التاريخ الأوروبي، يتعين على الأوروبي أيضاً أن يجيب عن جميع الجرائم التي اجترحها بحق الشعوب السوداء في أثناء مسيرة الاستعمار. بهذا الخصوص ينوء الإنسان الأبيض بعبء ثقيل جداً. فهو يظهرنا على صورة الظل البشري العام التي لا تكاد تُرسم بألوان أشد سواداً. إن الشر الذي ظهر في الإنسان، والذي لا شك يسكن في داخله، لذو نسب هائلة بحيث لو أرادت الكنيسة أن تتكلم عن الخطيئة الأصلية وتتعب آثارها في زلّة آدم وحواء، وهي زلّة بريئة نسبياً، لكانت شيئاً من قبيل اللطف (= النعمة). القضية أخطر بكثير، وتلقى من الاستهانة بقيمتها الشيء الكثير.

بسبب الاعتقاد الشائع بأن الإنسان ما هو إلا ما تعرفه واعيته عن نفسها، يعتبر نفسه غير مؤذ، وبذلك يضيف إلى الظلم غباء.

هو لا ينكر أن أشياء رهيبة قد حدثت، وما زالت تحدث، لكن «الآخرين» دائماً هم الذين يفعلونها. وعندما تعود مثل هذه الأفعال إلى الماضي القريب أو البعيد، سرعان ما تغرق في بحر النسيان وتعود تلك الحالة من الغمامية العقلية المزمنة التي نصفها بـ «الحالة السويّة» normality. في مضادّة صادمة لهذه الحالة، تنهض الحقيقة القائلة بأن لا شيء يختفي نهائياً ولا شيء مما صُنع كان خيراً. فالشر والإثم والقلق العميق الذي يزعج الضمير وكذا الارتياب الغامض ـ كل ذلك ماثل أمام أعيننا، لو أردنا أن نرى. لقد فعل الانسان هذه الأشياء؛ وأنا إنسان، له نصيبه من الطبيعة البشرية، لذلك فأنا أشترك في الذنب مع سائر البشر، وأحمل في داخلي، بدون تغيير ولا تحوير، القدرة والميل إلى فعلها أيضاً في كل وقت. باللغة القضائية، حتى ولو لم نكن شركاء في الجريمة، نحن مجرمون ممكنون بحكم طبيعتنا البشرية. في الحقيقة، كل ما في الأمر أننا نفتقر إلى فرصة مناسبة نخوض فيها عِراكاً جهنمياً: لا أحد منا يقف خارج الظل الجمعي، البشري الأسود. سواء أكانت الجريمة وقعت لأجيال خلت أم هي تقع اليوم، تبقى العلامة على استعدادِ إتيانها ماثلة دائماً وفي كل مكان ـ ولذلك قد يحسن امرؤ صنعاً لو كان لديه شيء من «تخيل شرير»، إذ ليس إلا الأحمق من يستطيع دائماً إهمال أحوال طبيعته. لأن هذا الإهمال خير وسيلة تجعل منه أداة بيد الشر. كفّ الأذى عن الناس وطيبة القلب لا ينفعان الا بمقدار ما ينفع الذين في جوار مريض بالهيضة (= الكوليرا) أن

يظلوا غير شاعرين بسريان المرض. على العكس، يؤديان إلى «إسقاط» الشر الذي يعترف به في قرارة نفسه على «الآخر». وهذا يقوّي موقع الخصم بأفعل طريقة، لأن «الإسقاط» ينقل الخوف الذي نشعر به في سرّنا، ومن غير إرادة منا، من الشر الذي نشعر به في سرّنا، ومن غير إرادة منا، من الشر الذي فينا - ينقله إلى الجانب الآخر ويزيد من فظاعة الخطر زيادة كبيرة. والأدهى من ذلك أن يحرمنا افتقارنا إلى النفاذيّة insight من **القدرة على التعامل مع الشر**. هنا، طبعاً، نواجه أحد سوابق الحكم الرئيسية المتّعلقة بالمأثور المسيحي، التي تقف حجر عثرة أمام سياساتنا. ينبغي لنا، هكذا قيل، أن نتجنب الشر، وألا نَمَسَّهُ ولا نذكره، إذا كان ذلك ممكناً. لأن الشر هو أيضاً الشيء ذو الفأل السيء، المحرّم والمخوف. هذا الموقف من الشر، والتهرّب الظاهر منه، يتملق الميل البدائي فينا لكي نغمض عيوننا عنه ونسوقه إلى هذه الحدود (الدولية) وتلك، مثل كبش الفداء المعروف في «العهد القديم»، الذي كان يُفترض فيه أنه ينقل الشر إلى البرّية.

لكن إذا لم يعد باستطاعة الإنسان أن يتجنب معرفة ان الشر يقيم في الطبيعة البشرية نفسها، بدون اختيار من الإنسان له، عندئذٍ يطلع على المسرح السيكولوجي بوصفه الشريك الندّ والضدّ للخير. تقودنا هذه المعرفة رأساً إلى الثنائية السيكولوجية، التي رسمت لنفسها صورة مسبّقة بطريقة غير شعورية تمثلت في الانشقاق العالمي السياسي، بل وحتى في التفكك غير الشعوري الأكثر في الإنسان الحديث نفسه. لا تأتي هذه الثنائية من هذه

المعرفة، بل من حالة انشطار منذ البدء. على أنها فكرة لا تُطاق أن نأخذ على مسؤوليتنا الشخصية هذا القدر الكبير من الذنوب، لذلك نفضل أن نجد الشر مقيماً في أفراد المجرمين أو في جماعاتهم، بينما نقوم بغسل أيدينا تنصلاً من الميل العام إلى الشر وتجاهلاً له. هذه التقوى الكاذبة لا تدوم طويلاً، لأن الشر، كما تظهر الخبرة، يكمن في الإنسان ـ ما لم نعمد إلى التسليم بمبدأ ميتافيزيائي للشر، وفقاً للنظرة المسيحية. الميزة العظيمة لهذه النظرة انها تخفف عن ضمير الإنسان مسؤولية بالغة الثقل إذ يلقيها تدليساً على عاتق الشيطان، في فهم سيكولوجي صحيح مآله ان الإنسان هو ضحية تكوينه النفسي أكثر منه صانعاً له. اعتباراً بأن الشر في يومنا هذا يُلقى كل شيء كان سبباً في عذاب البشرية إلى أعمق الظلال، يجب علينا أن نتساءل كيف حدث أن اخْتُرعتْ مكائن الدمار الهائلة التي تستطيع بكل سهولة أن تبيد العرق البشري من على ظهر البسيطة، على الرغم من كل التقدم الذي حققه الإنسان في ميادين إدارة العدالة والطبابة والتقانة، وعلى الرغم من كل السهر على الحياة والصحة.

لا أحد يذهب إلى أن علماء الفيزياء الذرية قطيع من المجرمين لأننا إلى جهودهم نحن مدينون بتلك الزهرة الغريبة التي ازهرت عن البراعة البشرية؛ أعني القنبلة الهيدروجينية. المقدار الهائل من العمل الفكري الذي أُنفق في تطوير الفيزيائيات النووية إنما قام به أناس محضوا أنفسهم إلى مهمتهم، باذلين أعظم الجهود والتضحيات، كان من الممكن أن تكسبهم انجازاتهم الأخلاقية

جدارة اختراع شيء مفيد ونافع للبشرية. لكن حتى ولو كانت الخطوة الأولى على الطريق إلى اختراع خطير آتية نتيجة لقرار واع، هنا، كما في كل مكان، فإن الفكرة العفوية ـ الترقّب أو الحدس ـ تلعب دوراً هاماً. بعبارة أخرى، الخافية تتعاون أيضاً وغالباً ما تصنع مساهمات حاسمة. ولذلك، ليس الجهد الواعي وحده هو المسؤول عن النتيجة؛ بل ان للخافية في هذا المكان أو ذاك، الخافية بأهدافها ومقاصدها التي يمكننا تبيّنها، إصبعاً في طبق الفطيرة. فإذا هي وضعت سلاحاً في أيدينا، كان معنى ذلك انها ترمي إلى عمل من أعمال العنف. معرفة الحقيقة هي الهدف الأول للعلم. ونحن، وإن وقفنا على خطر كبير ونحن نسعى وراء توقنا إلى النور، أخذنا الانطباع بأن الأمر يعود إلى القدر أكثر مما يعود إلى الرويّة والفكر. إن هذا لا يعني أن انسان اليوم قادر على الإتيان بالشر أكثر من إنسان العصور القديمة أو الإنسان البدائي. كل ما في الأمر أنه بات لديه من الوسائل الفعالة التي لا تُقارن، يستطيع بها أن يحقق ميله إلى الشر. بمقدارما اتسعت واعيته وتمايزت، بنفس المقدار تخلفت طبيعته الأخلاقية. تلكم هي المشكلة العظمى التي تواجهنا اليوم. **العقل وحده ليس كافياً**.

نظرياً، إنما يقع في نطاق قدرة العقل الكفّ عن القيام بتجارب جهنمية كتجارب الانشطار النووي، لا لشيء إلا لأنها خطرة. لكن الخوف من الشر الذي لا نراه في نفوسنا، بل دائماً في نفوس الآخرين، يصدّ العقل عن فعاليته في كل مرة، على الرغم

من علمنا أن استخدام هذا السلاح معناه نهاية أكيدة لعالمنا الإنساني الحاضر. الخوف من الدمار الشامل قد يوفر علينا ما هو أذهى وأمَرّ، إلا أن إمكانية بقائه مع ذلك معلقاً فوق رؤوسنا مثل غيمة سوداء ماثلة ما دمنا لم نستطع بناء جسر حقيقي، كحقيقة وجود القنبلة الهيدروجينية، يردم الفجوة التي أحدثها الانشطار العالمي النفسي والانشطار العالمي السياسي. فلو أمكن واعية عالمية أن تطلع علينا بالقول ان، كل إنقسام وكل تناقض إنما يرجع إلى إنشطار الأضداد في الخافية، إذن لعلمنا علم اليقين أين ينبغي لنا أن نشن الهجوم. لكن، لو ظلت أصغر ذبذبات الروح الفردية وأكثرها شخصية ـ على عدم أهميتها بحد ذاتها ـ خافية وغير معترف بها مثلما هي حتى الآن، لمضت في التراكم وإنتاج تجمعات وحركات قبلية لا تخضع إلى رقابة معقولة أو إيصالها إلى خاتمة طيّبة. كل الجهود المباشرة الرامية إلى فعل ذلك ليست أكثر من ملاكمة خيالية، أكثر الذين يخدعهم الوهم عن حقيقتها المتصارعون أنفسهم.

العامل الحاسم يكمن في الإنسان (الفرد)، الذي لا يملك جواباً عن ثنائيته. هذه الهاوية التي فغرت فاها أمامه، على حين فجأة، مع آخر أحداث التاريخ العالمي، بعد أن كانت البشرية عاشت قروناً كثيرة في اعتقاد يبعث على الارتياح بأن الله الواحد خلق الإنسان على صورته، كوحدة صغيرة. حتى اليوم، لا يشعر الناس أن كل فرد هو خلية في المنظمات العالمية المتنوعة، وأنه ـ تبعاً لذلك ـ متورّط في منازعاتها. إن الإنسان الفرد يعلم أنه من

حيث هو كائن فرد لا معنى له في قليل أو كثير، ويشعر أنه ضحية قوى لا ضابط لها. لكنه، من الناحية الأخرى، يخفي في سريرته ظلاً خطراً وخصماً يقوم بدور معين غير مرئي في تلك «المكينة» المظلمة التي يمتطيها للدوْلة السياسي. وانه لمن طبيعة المجموعات السياسية أن نرى الشر دائماً في المجموعات المناهضة، تماماً مثلما يكون لدى الفرد مَيْلٌ لا سبيل إلى اقتلاعه للتخلص من كل شيء لا يعرفه عن نفسه ولا يريد أن يعرفه، متوسلاً إلى ذلك بإلقائه على شخص آخر.

لا شيء له تأثير تقسيمي وتغريبي على المجتمع أكبر من هذا الرضا الأخلاقي عن النفس وانعدام المسؤولية، ولا شيء ييسر التفاهم والتقارب أكثر من الانسحاب المتبادل للإسقاطات. هذا التصحيح الضروري يقتضي النقد الذاتي، لأن أحد الشخصين لا يستطيع أن يطلب من الآخر سحب إسقاطاته. فالمرء لا يعرف من أجل ماذا كانت هذه الإسقاطات بأكثر مما يعرف نفسه. نحن لا نستطيع أن نتعرّف على تحاملاتنا وأوهامنا إلا بعد أن نكتسب معرفة سيكولوجية واسعة عن أنفسنا وغيرنا، ونكون عندئذٍ مستعدين للشك في الصحة المطلقة لمنطلقاتنا ومقارنتها بعناية ووجدانية مع الحقائق الموضوعية. يا للسخرية، «النقد الذاتي» فكرة رائجة جداً في البلدان الماركسية، لكنها هناك خاضعة لاعتبارات أيديولوجية ويجب أن تخدم الدولة، لا أن تخدم الحق أو العدل في تعامل الناس بعضهم مع بعضهم الآخر. لا تريد الدولة القبلية زيادة التفاهم بين الناس وتوطيد علاقة الإنسان

بالآخر، بل هي تجهد من أجل التفتيت، من أجل عزلة الفرد النفسية. فكلما كان الأفراد لا صلة لهم فيما بينهم، أصبحت الدولة أكثر تماسكاً، والعكس صحيح.

لا شك أن المسافة بين الإنسان والإنسان في الديمقراطيات هي أكبر بكثير من أن تؤدي إلى رفاهية عامة أو إلى تلبية احتياجاتنا النفسية. صحيح أنه بُذلت جميع أنواع المحاولات من أجل تسوية الفروق الاجتماعية الفاضحة بالاستجابة إلى مثالية الشعب وحماسته ووجدانه الأخلاقي؛ لكن، كما هو المعهود في مثل هذه الأحوال، ننسى ممارسة النقد الذاتي الضروري، والإجابة عن سؤال من يصنع المطلب المثالي؟ هل هو من قبيل المصادفة ان يعصر امرؤ فوق ظل نفسه لكي يُلقي بنفسه في جشع فوق برنامج مثالي يعده بشهادة براءة؟ كم لدينا من الاحترامية والأخلاقية الظاهرة مما يخفي تحته مطليّاً بألوان خادعة عالماً جوانياً من الظلام مختلفاً جداً؟ أول شيء نريد أن نتأكد منه هو ان كان الإنسان الذي يتكلم عن المثل العليا هو نفسه مثالياً، بحيث تكون أقواله وأفعاله أكثر مما تبدو. ان تكون مثالياً هو أمر مستحيل، ولذلك يظل المثل الأعلى مسلّمة غير ناجزة. وبما أن لدينا في العادة أنوفاً حادّة من هذه الناحية، تبدو معظم المثاليات التي يُدعى إليها وتُعرض أمامنا فارغة نوعاً ما، ولا تصبح مقبولة إلا عندما يُسَلِّم بضدها صراحةً. بدون هذا الثقل المقابل، يذهب المثل الأعلى إلى ما وراء قدرتنا البشرية، ويصبح أمراً لا يُصَدّق بسبب من قلة فكاهيّته، وينحطُّ إلى مستوى البلْف والدجُل، وإن

كان صادراً عن حسن نيّة. البلف طريقة غير مشروعة للسيطرة على الناس ولا يفضي إلى خير.

التعرّف على الظل، من ناحية ثانية، يؤدي إلى التواضع الذي نحتاج اليه لكي نعترف بأننا غير كاملين. واننا نحتاج إلى هذا التعرّف والنظر الواعي كلما أردنا إقامة علاقة إنسانية. فالعلاقة الإنسانية لا تقوم على التمايز والكمال؛ إذ هما يستدعيان النقيض التام. إنما تقوم العلاقة الإنسانية على عدم الكمال، على ما هو ضعيف، على ما لا عون له، وعلى ما هو بحاجة إلى سَنَد - الأساس والدافع إلى الاعتماد على الآخر. الكامل لا يحتاج إلى الآخر، بل الضعف هو الذي يحتاج، لأنه يفتش عن سند ولا يواجه شريكه بشيء قد يجبره على موقف دنيء يُذلّه به. لا يحدث هذا الإذلال بسهولة إلا عندما تلعب المثالية دوراً أبرز من اللازم.

يجب ألاّ تُؤخذ مفاكرات من هذا النوع على أنها وجدانيات فائضة عن الحاجة. إن مسألة العلاقة الإنسانية والتماسك الجوّاني في مجتمعنا مسألة مُلحّة بالنظر إلى تفتّت إنسان القبيلة المقموع الذي يقوّض علاقاتِهِ الشخصيةَ انعدامُ الثقة العام. حيثما كانت العدالة غير أكيدة، وتجسس البوليس وإرهابه قيد الفعل، تقع الكائنات البشرية في العزلة التي هي، بطبيعة الحال، ما ترمي اليه الدولة الدكتاتورية. لأنها مؤسسة على أكبر تراكم ممكن من الوحدات الاجتماعية الواهنة القوى. لمواجهة هذا الخطر، يحتاج المجتمع إلى رابطة ذات طبيعة عاطفية، إلى مبدأ من نوع يشبه

مبدأ «كارتياس» Cartias، الحب المسيحي للجار. لكن، ليس كهذا الحب الذي يحبوه الإنسان للفتى الآخر ما يعاني أكثر من كل شيء من انعدام الفهم الناشئ عن **الإسقاط**. لذلك كان من مصلحة المجتمع الحر أن يجيب عن مسألة العلاقة البشرية مستعيناً بوجهة النظر السيكولوجية، لأن فيها يكمن تماسكها الحقيقي، وقوتها تبعاً لذلك. حيثما ينتهي الحب، تبدأ السلطة والعنف والإرهاب.

ليس المراد من هذه المفاكرات reflection أن تستجيب لمثالية، بل لتغلية وعي الوضع السيكولوجي. لا أدري أيهما أضعف: المثالية أم نفاذية الرؤية عند العامة. لا أدري سوى أن إحداث تغيير ذي أمل بديمومة إنما يحتاج إلى وقت، ويبدو لي أن نفاذية رؤية يشرق فجرها بطيئاً خليقة بأن تدوم آثارها أطول من مثالية متقطعة، غير خليقة بأن تدوم طويلاً.

الفصل السابع

معنى معرفة الذات

ما يراه عصرنا أنه «الظل» والجانب الدنيء من النفس ينطوي على أكثر من مجرد شيء سلبي. فوصولنا إلى الغرائز وعالم الصور، عن طريق معرفة الذات بالتنقيب في أعماق نفوسنا، يُلقي بعض الضوء على القوى الهاجعة في النفس، التي نادراً ما نعرفها ما دام كل شيء يجري على ما يرام. وما إذا كان تفجّر هذه القوى والصور والفكر المرتبطة بها يميل بنا إلى التعمير أو التخريب، وهي القوى ذات الدينامية العالية، يتوقف كلّياً على استعداد وموقف العقل الواعي. يبدو أن عالم النفس هو الشخص الوحيد الذي يجد نفسه مضطراً إلى التفتيش في طبيعة الإنسان بحثاً عن تلك القوى والفكر المسعفة التي طالما مكّنت الإنسان (الفرد) من إيجاد الطريق الصحيح وسط الظلام والخطر. ذلك أن هذا العمل الدقيق الذي يقوم به عالم النفس يتطلب منه كل ما عنده صبر؛ فلعلّه لا يعتمد على «وصايا» و«نصائح» تقليدية، تاركاً للشخص الآخر أن يبذل كل الجهد، مكتفياً بالدور اليسير، دور الناصح

والمشير. كلنا يعلم عقم الوعظ في الأشياء التي نحبها عن الأشياء التي نحبها، ومع ذلك فإن قلة العون لهي من الشدّة، والحاجة لهي من الإلحاح، حتى لنفضل أن نكرر الغلطة القديمة بدلاً من أن نهرش برؤوسنا بحثاً عن حل لمشكلة ذاتية. هذا إلى أن المسألة هي دائماً مسألة معالجة فرد واحد فقط لا عشرة آلاف، حيث يكون للمشقّة التي يتكلّفها المرء نتائج أشد تأثيراً، وإن كان يعلم تمام العلم ألاّ شيء يحدث أبداً ما لم يتغير الإنسان (الفرد).

التأثير على جميع الأفراد، الذي نريد له أن يتحقق، ربما لا يبدأ لمئات السنين، لأن التغيير الروحي للبشرية يسير بخُطاً بطيئة على إيقاعات القرون ولا يمكن التعجيل به أو الاحتفاظ به بواسطة سياق عقلي من المفاكرة، بَلْهَ إعطاء ثماره في جيل واحد. بَيْدَ أن ما في متناولنا هو التغيير في الأفراد الذين لديهم، أو خلقوا، فرصة للتأثير في آخرين لهم مثل العقل في دائرة معارفهم. لا أريد بذلك الإقناع أو الوعظ ـ إنما أفكر بالحقيقة المعروفة جيداً ومُفادها أن ما من شخص عنده نفاذية insight في عمله، واستطاع ان يصل بها إلى الخافية، إلا ويمارس نفوذاً في محيطه من حيث لا يدري. ان تعميق وتوسيع واعيته ينتج أثراً يسميه البدائيون «مانا» mana. انه يحدث تأثيراً غير قصدي على خافية الآخرين، نوع من الجاه غير الشعوري، ويبقى ما دام لا يزعجه قصد واع.

كلا، ولا السعي من أجل معرفة الذات ينأى بصاحبه كلّياً عن ارتقاب تحسّن اجتماعي، لأن هناك عاملاً؛ على الرغم من استبعادنا له تماماً، يتلاقى مع توقعاتنا في منتصف الطريق. هذا

العامل هو «روح العصر» Zeitgeist: يعوّض موقف العقل الواعي ويستبق التغيرات الآتية. مثال ممتاز على ذلك، الفن الحديث: رغم ما يبدو عليه من تعامل مع مشكلات استاطيقية (= جمالية)، لكنه في الواقع يقوم بعمل تثقيف سيكولوجي للعامة بتعطيل وتدمير نظراتهم الجمالية السابقة المتعلقة بما هو جميل شكلاً ما هو ذو دلالة مضموناً. لقد حلّ محل الإمتاع الذي يحدثه الناتج الفني تجريداتٌ جامدة للطبيعة الموغلة في ذاتيتها التي تصفق الباب فجأة على المتعة الرومانطيقية الساذجة التي تستمتع بها الحواس وعلى حبها القسري للموضوع. إن هذا يُنبئنا، بلغة صريحة وعالمية، ان الروح النبوئية في الفن الحديث ابتعدت عن علاقتها القديمة بالموضوع واتجهت - في الوقت الحاضر - صوب عماء الذاتيات المظلمة. يقيناً، أن الفن، إلى حد ما نستطيع أن نحكم، لم يكتشف بعد في هذه الظلمة ما يجمع الناس بعضهم إلى بعض وما يمكنه أن يهب كلّيتهم النفسية التعبير عن نفسها. وبما أن التغيير يبدو لازماً لهذا الغرض، قد يُصار إلى حفظ مثل هذه الاكتشافات من أجل ميادين أخرت من التجربة.

حتى الآن، يستمد الفن الحديث خصوبته من الأسطورة، من سياق الترميز غير الشعوري الذي يبقى على مدى العصور، والذي سوف يظل باقياً من حيث إنه التجلّي الأوّلي للروح البشري، والأصل لكل خلق في المستقبل. إن تطور الفن الحديث، في اتجاهه العدمي ظاهرياً نحو الانحلال، يجب أن نفهمه عَرَضاً ورمزاً على مزاج يرمي إلى تدمير العالم وتجديده، وهو المزاج

الذي يَسِمُ عصرنا بمِيسمه. إن هذا المزاج يُشعرنا بوجوده في كل مكان، سياسياً واجتماعياً وفلسفياً. إننا نعيش فيما أسماه الإغريق بـ «الوقت الصحيح» ـ يريدون به «تخلّق الآلهة في هيئة أخرى» metamorphosis؛ بعبارة أخرى، تحوّلات للمبادئ الأساسية والرموز. هذه الخصوصية التي يختص بها عصرنا، التي ليست قطعاً باختيارنا الواعي، هي تعبير عن الإنسان غير الشعوري الذي يتغير فينا. لسوف يتعين على الأجيال القادمة ان تأخذ في حسبانها هذا التحول الخطير ان كان للبشرية ألاّ تدمر نفسها من خلال قدرة تكنولوجيتها وعلمها.

مثلما كان الأمر في بداية العهد المسيحي، هكذا نواجه اليوم أيضاً مشكلة التخلف الأخلاقي التي لم تستطع أن تتواكب مع تطوراتنا العلمية والتقانية والاجتماعية. شيء كثير جداً مهدد بالخطر، وشيء كثير جداً يتوقف على التكوين النفسي للإنسان الحديث. هل هو قادر على مقاومة إغراء استعمال قوته بقصد إشعال حريق عالمي؟ هل هو شاعر بالطريق الذي يقطعه، وما هي النتائج التي يجب عليه أن يستخلصها من الوضع العالمي الراهن ومن وضعه النفسي؟ هل يعلم أنه على حافّة فقدان اسطورة حفظ الحياة، أسطورة الإنسان الجوّاني الذي اكتنزته المسيحية من أجله؟ هل يدرك ماذا ينتظره لو نزلت به هذه الكارثة؟ هل هو قادر حتى على إدراك أن هذا سوف يشكل كارثة أصلاً؟ ثم، هل يعلم الفرد انه هو كمالة الوزنة make weight التي ترجح الكفة؟

السعادة والرضا والاستقرار النفسي ومعنى الحياة ـ هذه لا

يمكن أن يختبرها غير الفرد؛ لا تختبرها الدولة التي ما هي إلا إجتماع أفراد مستقلين من ناحية، وتهديد بشلّ الفرد وقمعه من ناحية ثانية. إن عالم النفس هو أحد الذين يعلمون أكثر شيء عن أحوال رفاهية الروح، التي يتوقف عليها ما لا نهاية له في المجموع الاجتماعي. لا شك أن للظروف الاجتماعية والسياسية في عصر ما أهمية كبيرة، لكن أهميتها لخير الفرد وشرّه قد بولغ في تقديرها مبالغة لا حدود لها بمقدار ما تعتبر العوامل الحاسمة الوحيدة. بهذا الخصوص، تقترف جميع أهدافنا الاجتماعية خطأ غض النظر عن سيكولوجية الشخص الذي من أجله رسمت هذه الأهداف و ـ في الأغلب ـ لا تفعل شيئاً غير تغذية أوهامه.

لذلك، آمل أن يُسمح لعالم النفس، الذي في مجرى حياة طويلة قد محض نفسه لدراسة الأسباب والنتائج التي تنجم عن الاضطرابات النفسية، بالتعبير عن رأيه، بكل التواضع المفروض عليه كفرد، في المسائل التي يستثيرها الوضع العالمي اليوم. فأنا لا يستحثّني تفاؤل مفرط ولا عشق للمثل العليا، إنما أنا معنيٌّ فقط بمصير الكائن البشري الفرد ـ ذلك الوحدة التي لا نهاية لصغرها التي يتوقف عليها العالم، والتي فيها يفتش حتى الله عن هدفه، هذا إذا قرأنا رسالة المسيحية قراءة صحيحة.



هذا الكتاب

«لسوء الحظ، وإنه لأمر أوضح من أن نبيّنه، هو أن الفرد إن لم يولد ولادة روحيّة جديدة حقاً، لم يستطع المجتمع أن يولد هذه الولادة هو أيضاً، لأن المجتمع هو مجموع أفراد يحتاجون إلى فداء».

ك. غ. يونغ.

في هذا الكتاب الذي يتّسم بالتحدّي والمُواقَتَة، يناشدنا طبيب نفساني حديث شهير أن نتخلّى عن مفهوم إنسان التنظيمات الذي يؤدي إلى الطغيان الذي يحجب الكثير من عالم اليوم. في توكيد واقتناع، يؤكد يونغ أن هذا لا يتم إلا بالكشف عن طبيعة الكائن البشري الفرد الحقيقية وإخراجها إلى النور ـ «التنقيب في أغوار النفس»... الإنسان الحقيقي في مقابل الإنسان الاحصائي.

لا يعرض الدكتور يونغ حلولاً يسيرة للأزمة الرهيبة التي تعصف في العالم. عوضاً من ذلك، يتوقف البديل عن إبادة العالم، لا على الحركات القبلية من أجل الخير، ولا على الحجج المثالية الداعية إلى تحكيم العقل، بل على الإقرار بوجود الخير والشر في كل فرد وعلى فهم صحيح للنفس الجوّانية، دفاع قوي عن تكامل الفرد».

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع